الكتاب الثانى

٣٠ أغسطس – ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٧

بين مصر والآستانة

الأكروبولس ، الدردنيل ، ظاهر الآستانة

سارت بنا الباخرة رومانيا عصر الثلاثاء ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٧ من الإسكندرية قاصدة الآستانة وبرغم ما بشر به صحو الجو من سكينة فى البحر ، ما كادت الباخرة تتخطى باب البوغاز وتشق طريقها خلال الموج حتى تدافع الموج عن جانبيها قويًّا آخذاً بعضه برقاب بعض ، تدفعه « رومانيا » ويدفعها ، فيعلو بها ويهبط ويميل بها يمنة ويسرة ، حتى اضطر المسافرون جميعاً إلى الهبوط إلى مضاجعهم ، ومنهم من وجد فى النوم دواء من دوار البحر المضطرب ، ومنهم من غلب الدوار نومه فصار يتقلب على جنبيه ثم لا يجد من دواره مقيلا إلا أن يخلو جوفه من كل ما فيه .

وأصبح الأربعاء ، فإذا البحر هادئ ، وإذا النسيم بليل عذب ، وإذا الموج قد اختفى تحت سطح الماء أو انحدر إلى القاع فى انتظار إغارة أخرى . لكن السَّفْر ما زال أكثرهم فى مضجعه خيفة أن يصيبه اليوم ما أصابه أمس . وعبثاً تحاول إقناع من استطعت منهم أن الهواء فوق سطح الباخرة رقيق منعش يذهب بما قد لا يزال من بقية الدوار . وكيف تقنعهم وهم أناس فى فطرتهم المحافظة والخوف والتردد ، لا يقدمون إلا كرهاً ، أو إلا أن يدعوهم ظفر إلى ظفر مثله ، ومغنم إلى مغنم جديد . فإذا ردّت الحياة ظفرهم هزيمة حسبوا الهزيمة أمراً عادياً وقنعوا من الغنيمة بالإياب . فإذا بدت لهم من جديد بشائر مغنم اندفعوا إليه كاشرة أنيابهم حاسرين عن أذرعهم ، بادية مخالبهم ، حمراً عيونهم ، ليس ينقصهم من شهوات الحيوان وسلائقه إلا خوف الارتكاس فى هزيمة جديدة .

واطمأن الكل إلى السلامة بعد ما انتصف النهار ودعا الداعى إلى طعام الغداء . هنالك رأيت كثيرين يتسللون لواذًا من مضاجعهم إلى غرفة الطعام . ولما رأوا غيرهم يأكلون أكلوا . ولما اطمأنوا إلى السلامة وأمنوا الدوار ابتسموا واستأسدوا ، وتقضى مساء الأربعاء فى سمر ألذ سمر ، وفى سماع الألحان الممتعة ينقلها « الراديو » إلى المسافرين من الآستانة تارة ومن فينا تارة

أخرى ومن باريس ثالثة . وكذلك سخر لنا العلم كل ما فى العالم ، وكنا من قبل نضيق بعلم أضيق بقاع العالم ذرعاً .

وتكشف نهار الخميس عن اليابسة ، فما لبثت أن بدت لذهنى يونان القديمة ، وما خلفت للعالم من شعر وأدب ومن علم وفضل ما يزال العالم حتى اليوم ينهل منها أعذب ورد ، وسيظل الإنسان يجد فيها من بدائع آثار الخيال والذهن خير متاع وخير غذاء .

وأقلنا زورق من الباخرة إلى مرفأ بيريه ، ثم أقلنا ترام أثينا فى نحو ربع الساعة ، وصحبنا دليل طاف معنا فى أوتومبيل أنحاء العاصمة الحديثة . فلقد كانت أثينا عدة عصور عاصمة الدنيا ، ومستقر حضارة العالم ، ومهبط وحى شعره وحضارته . أما اليوم فهى عاصمة اليونان التى كانت مغلوبة على أمرها خاضعة لحكم غيرها من أقل من ثلث قرن من الزمان ، والتى ما تزال ميداناً للاضطراب وللثورة وللفورات البركانية الإنسانية التى تنبئ عن عدم الاستقرار إلى حال يطمئن لها الإنسان .

والحق أن مظاهر أثينا الحديثة ليست مما يلفت النظر ولا مما يقف عنده الفكر . كل ما فيها من مظاهر الحضارة مجلوب إليها عن غيرها ، وتظهر فيه المحاكاة ، ولا يبدو فيه شىء من الإبداع أو الذاتية . فهذا البرلمان وهذه المكتبة القومية وإلى جانبها الأكاديمية والكلية لا يأخذ بالنظر من أمرها إلا أنها تشرف على ميدان هو أفسح ميادين أثينا وأجملها . فأما الأرينا — أو كما تسمى فى اليونانية « الأستاديوم » — والتى كانت مشهد الألعاب الأولمبية ، فقد استحدثت منذ ثلاثين سنة ماضية ، فطمست على آثار الملعب القديم الذى يثير فى الذهن عصوراً كان فيها الجمال العريان خيراً من الجمال الكاسى ، كما أن الحقيقة العارية خير من الحقيقة الكاسية . وهذه العمائر ليست بعد من العظمة فى مثل عظمة أشباهها فى باريس ولندن والمدائن الكبرى مما أراد اليونان محاكاته . فإذا نظرت بعد ذلك إلى طرق المدينة ورصفها وإلى المصارف والمتاجر عن جانبيها ، بدأت تدرك السبب الذى من أجله ينظر أهل أوربا الغربية إلى أهل أوربا الشرقية ، وإلى البلقان بنوع خاص ، نظرهم إلى شعوب الشرق ممن يخضعون لحضارتهم ولا يجدون سبيلاً إلى السعادة والقوة والعظمة إلا بمحاكاتهم .

هذه الصورة التى تبعث بها النظرة الأولى لأثينا إلى الذهن لا تأخذ به طويلا . فإنك ما تكاد ترتفع ببصرك فوق هذه المنشآت الحديثة حتى تأخذ به آثار عالية تعيد إلى ذهنك صورة الأقصر ومعبد آمون وبعض ما انتثر وراء ذلك فى صحراء الدر من آثار مصرية . ثم إنك ما تكاد تسأل الدليل عنها حتى تنسى أثينا الحديثة ، وحتى تنسى البرلمان والمكتبة

والأستاديوم ، وحتى تنسى الحاضر وما فيه ، وحتى يتعلق بصرك وسمعك وفكرك وكل حس فيك وخيال بهذا الاسم الذى ينطق به الدليل الأكروبولس .

فلنذهب إذن إلى الأكروبولس : إلى المدينة العالية . وليدر بنا الأوتوبيل متسلقاً خلال الآثار ليقف عند أسفل جدارها . ولنتسلق على القدم سفح هذا التل المشرف على أثينا وعلى مياه البحر وأمواجه . ولنرتق درج هذا السلم المؤدى إلى معبد النصر المقصوص الجناح . ولنقف على مقربة من هذا المعبد نرسل الطرف إلى حيث حاول الفرس منذ أكثر من ألفى سنة اقتحام أثينا فاحترقت سفنهم ، وتم للأثينيين النصر من غير كبير عناء ، فأقاموا لنصرهم هذا المعبد ، ولم يجعلوا له أجنحة يطير بها فى عالم الخيال ، خيال الفروسية والإقدام . ثم لنرتق من جديد مع دليلنا اليونانى المحدث عن القدماء كأنه أحدهم . ولنقف وإياه معجبين بهيكل تيزيه مستقر الحكمة والعلم ، وبالعمد البديعة البسيطة النقش تحيط بالهيكل وقد نقشت الأحجار التى تصل بينها من أعلى نقشاً يونانياً قديماً هو الجمال كله . ولندر مع هذا البناء ليقف بنا الدليل مشيراً إلى مكان هناك فى انحدار التلال حيث شرب سقراط السم تقديساً للحرية والعلم . والى الناحية الأخرى من هذا القدس الذى شهد موت الحكيم لتحيي الحرية آثار ملعب كان اليونانيون الأقدمون يتلهون فيه بمشهد الخيل ولعبها . وإلى الناحية الأخرى من هيكل الحكمة هيكل ثان اعتمد سقفه على ثلاث نسوة من بنات « كاريات » اللاتى عرفن بالجمال أيام كان الجمال معبوداً ، وكانت له آلهة تقدم لها القرابين اعترافاً بقداسته ، وأولئك النسوة الثلاث اجتمع لهن من الرشاقة والقوة ما يلهم النفس معنى من الجمال غير ما ألفت من رقة تكاد لنحولتها تطير ، ومن دماسة تكاد لجسامتها تكثف . رشاقة تجعل القوة ليناً وميساً ، وقوة تجعل الرشاقة مفتولة ذات قوام وهمة . ومن بين معبد الحكمة وهيكل الكارياتيد انحدرنا إلى متحف اجتمع فيه من آثار الفن القديم ما يلهمك صورة من تطور الفن على ما كنا نفهمه من استكشاف آثار توت عنخ آمون فى طيبة . فهذه التماثيل المصرية القديمة جالسة وأيديها على أفخاذها ، أو واقفة وأيديها إلى جوانبها ، دليل السكينة والطمأنينة وهى عارية أو تكاد . وهذه التماثيل المصرية القديمة هى ما كان يفهم الكل أنه بدء عمل التماثيل فى حياة الوجود . ومن هذا السكون المصرى تطور النحت إلى الحركة فى مصر واليونان . لكن الحركة فى مصر كانت بسيطة كل البساطة ، لا تزيد على يد ممدودة أو ساق متقدمة إلى الحركة . أما التماثيل اليونانية فبدأت ترتدى من اللباس ما أزال عريها ، وبدأت ملامحها تدل — من غير حاجة إلى تمثيلها فى صورة الطير أو الوحش — على ما يدور بخاطر أصحابها من

أفكار أو عواطف أو شهوات . وكان الدليل ظريفاً حين كان يشير إلى بعض التماثيل الدقيقة الصنع قائلا : وهذا تمثال من خير ما احتفظ به التاريخ لا ينقصه إلا أن يتكلم . وربما كان غير مبالغ فى تقديره هذا . فمن تلك التماثيل ما أبدع فيه صانعه ، حتى لتخاله ، وقد انقضت عليه مئات السنين ، كأنه يعبر عن فكرة تمر بخاطر ابن اليوم أو شهوة من شهواته ، أو عاطفة من عواطفه ، وكأنه ينبئنا بأن كمين ما فى النفس الإنسانية خالد لا يغيره الزمان وإن تغيرت مظاهره بتغير الأزمان .

وانتقلنا فى المتحف من غرف تطور الفن إلى غرف تطور الفكرة الإنسانية فى الوجود وكماله . ووقفنا أمام تمثال يشير فيه كبير الآلهة هرقل إلى رجل يعبده موجهاً نظره إلى صورة الكمال على أنها أسمى صفات الألوهية ، داعياً إياه أن يعمل كى يصل إلى الكمال ليرقى إلى مصاف الآلهة . قال الدليل الشيخ يقص ما حفظ عن ظهر قلبه : وكذلك نرى أن معنى الألوهية فى الأساطير اليونانية كان معنى إنسانياً صرفاً هو الكمال ؛ فمن بلغ الكمال بلغ مراتب الآلهة . ولم يتطور هذا المعنى ليصبح صوفيًّا إلا بعد أن تدهورت الفكرة اليونانية القديمة السامية . وهذا هو سر تعدد الآلهة فى العصور القديمة . فكل مظهر من مظاهر الكمال صفة من صفات الألوهية ، وكل من سما إلى هذا الكمال شارك الآلهة فى صفاتهم فكان منهم .

وخرجنا من المتحف ، وجعلت أدور فى أنحاء أطلال المدينة العالية « الأكروبولس » ، وأجيل الطرف فى سطوح منازل المدينة الحالية وهى ساكنة تحت الشمس كأنها هى أيضاً أطلال ، أو كأنها توحى إلى النفس يوماً أن ستصبح فيه أطلالا ، وستذر فيه لألوف سنين مقبلة آثاراً كآثار المدينة القديمة .

واستندت إلى بقية جدار أشهد من عنده كثيراً من الآثار ، وذكرت ما خلف المصريون فى طيبة وفى غير طيبة ، ثم ما كان من غزو الرومان لأثينا ومصر ، ثم ما عقب ذلك من غَيَر التاريخ حتى يومنا الحاضر ؛ فإذا أمامى لجة من الزمن غرق فيها كل ما أذكر ، وإذا بى أستعيد ما رواه التاريخ عن قدماء المصريين الذين انتقلوا إلى اليونان حين كان أهلها ما يزالون قبائل غير مستقرة ، والذين استقروا فهدوا أهل اليونان إلى حياة الاستقرار ، ووجهوهم بما لديهم من فن وعلم إلى ما برع اليونان من بعد فيه وما تركوا للعالم من تراث مجيد اهتدى العالم به حتى عصوره الأخيرة ، وحتى فتح العلم أمامه أبواباً جديدة لم تعرف فى الأزمان القديمة على نحو ما نعرفها نحن اليوم ، وعلى نحو قد يعرفه أبناؤنا من بعد ولا نعرفه نحن .

هذه إذن هى الأكروبولس . هذه الأطلال البالية اليوم والتى تطل من رفعتها على أثينا الجديدة ، كانت فى الماضى مستقر حضارة الماضى ومجده . وكان أهل هذه الحضارة يحكمون العالم ويتحكمون فيه ؛ لأنهم أصحاب الحضارة الغالبة . ولأهل هذه الأكروبولس كان يدين أهل ذلك العصر فى الأمم الأخرى بالطاعة ، كما يدين أهل هذا العصر بالطاعة لباريس ولندن . وكان أهل هذه الأكروبولس يسومون ، ولا ريب ، من ألوان العسف ما يسوم أهل أوربا الغربية الناس اليوم . وكان أولئك ولا ريب ، يقولون كما يقول هؤلاء : إن الأقدار قد ألقت على عاتقهم عبء تمدين العالم وتحضير أهله . وها نحن أولاء اليوم قد نسينا ما صنع الأقدمون كله خلا التراث الخالد الذى خلفوه للإنسانية تنعم به ويرتع خيالها وذهنها فيه . ولعل أبناءنا إذا أتيح لهم يوماً أن يكونوا أصحاب الحضارة الغالبة ويلقى القدر على عاتقهم عبء تمدين العالم وتحضير أهله ، ينسون ما صنع بنا أهل الغرب ، ولا يذكرون لهم إلا هذا العلم العظيم الذى فتح لنا ولأبنائنا من الأبواب ما لم يكن يحلمْ به أهل اليونان القديمة ولا أهل مصر القديمة أولاً يكون خيراً لو أن أهل المدنيات الغالبة كانوا أقل صلفاً ، ولم يغالوا فى ادعاء تحضير العالم كله ، وجعلوا التعاون والتضامن بديلين من العسف والتحكم ، وهدوا الكل إلى سر الحضارة ؛ لتصل الإنسانية إلى أبعد حدود الكمال فى أقرب زمن ممكن ، فتبلغ من صفات الآلهة ما يجعلها معبوداً لا يغلو إن هو أله نفسه وعبد كماله ؟ أم التحكم والعسف سلائق إنسانية لن يتغلب عليها متغلب بالغة ما بلغت حكمته ، وإذن فستظل الإنسانية فى بعدها عن الكمال تخلع صفاته على كل ما تريد أن يكون موضع إيمانها وعبادتها ؟ .

. . . طال بى الوقوف معتمداً إلى بقية الجدار حتى جاء الدليل ينبهنى إلى أن الوقت قصير ، وأنا ما نزال مضطرين إلى زيارة بعض أنحاء المدينة والطواف فى متحف أثينا القومى . فانحدرت إلى حيث الأوتوبيل وسرت ومن معى فى طرق المدينة الحديثة ، وزرنا المتحف وما اجتمع فيه من آثار عثر عليها المنقبون . وبرغم ما بين تلك الآثار من بدائع نادرة فقد ظلت الأكروبولس آخذة بخيالى وذهنى فلم يستبقيا مما شهدت عيناى فى المتحف كثيراً .

وعدنا إلى بيريه فإلى الباخرة « رومانيا » التى أبحرت بنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر قاصدة الآستانة . فلما كنا فى أخريات النهار نتحدث إلى ربانها عما يتوقع للجو وتقلبه وللبحر وموجه ، طمأننا ، ثم أشار علينا بأن نبكر فى اليقظة صباح الجمعة لنشهد الباخرة ساعة تدخل الدردنيل ومرورها بين هذه الجبال التى شهدت من أهوال الحرب الكبرى

ما شهدت ، قال : قد لا تتاح لكم فرصة المرور فى هذا المضيق مرة أخرى ؛ وعلى كل حال فجدير بمن مر بالدردنيل للمرة الأولى أن يشهده فيذكر ما شهدت جباله القاحلة القاسية .

وفى الساعة الخامسة من صباح الجمعة كنا أيقاظاً ، فارتدينا ملابسنا وزدنا عليها معاطفنا نتقى بها برد البحر فى ساعة البكور ، وخرجنا إلى سطح الباخرة ننتظر مشرق الشمس ومرور الباخرة من خلال الدردنيل ، وكنا نحسب من يدفعهم التطلع إلى مثل تبكيرنا كثيرين : فإذا الكل فى مضاجعهم إلا أشخاصاً معدودين من بينهم سيدة مسافرة وحدها وجدت فى حماية بعض كبار البحارة ما أتاح لها الوقوف عند مقدمة الباخرة والاحتماء من البرد بما يحتمى به الربان وأعوانه .

وتبدى الدردنيل فى هدأة الصباح وسكونه ، وتبدت الشمس مشرقة من وراء جباله . وخطرت الباخرة بين هذه القمم الجرداء والناس من فوقها فى طمأنينة وسكون ، ولو أنا كنا فى مثل هذا الوقت منذ عشر سنوات ماضية حين كان الدردنيل بقعة جهنمية فى ميادين الحرب الكبرى لما خطر لمسافر أن يقترب من الدردنيل إلا كارهاً باسم متطوع أو جندياً يريد لأمته الظفر والاستعلاء .

فأما اليوم فها نحن أولاء نخطو خلاله آمنين ، نلقى عليه نظرة إعجاب بالشمس البازغة والمياه المطمئنة ، وبهذه الجبال الجرداء على الجانبين لا تميز فيها من آثار الإنسان شيئاً حتى يقع نظرك على أثر على الشاطئ الأوربى هو النصب الذى أقامه الحلفاء تذكاراً لمن استشهد منهم فى هذه البقعة دفاعاً عن مبادئ الحلفاء التى كانت ترى الحرب دفاعاً عن الحرية ، وحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والقضاء على المعاهدات السرية وعلى استعباد الشعوب ، والتي انقلبت بعد ظفر الحلفاء عبثاً بمصير الشعوب وبحريتها . وحول هذا التمثال مقابر لأولئك الألوف الذين استشهدوا وأكثرهم مخدوع بما زين الساسة من الألفاظ المعسولة ، وأكثرهم يحسب أنه يستشهد فى سبيل الحق والحرية .

ومررنا بشناق ومن بعدها بجاليبولى والجبال من الجانبين هى الجبال الجرداء . ثم تخطينا الدردنيل إلى مرمرة ، فانفسحت عن جانبي السفينة أرجاؤه وصرنا يخبط بنا الماء كل جانب . ثم ما هى إلا سويعات حتى تبدى البسفور ، وحتى بدت تباشير الآستانة وطلائعها .

الآستانة – القسطنطينية – بل ، أستغفر الله ، إستامبول ، فذلك هو الاسم الذى قصره الأتراك على المدينة القديمة بعد ظفرهم الأخير وبعد نقلهم عاصمة ملكهم إلى أنقره .

إستامبول وما حولها هو مدخل البسفور ، هذا البوغاز البديع الجمال الفذ من بين ما أبدعت الطبيعة من أمثاله . الفذ بموقعه ، وبتاريخه ، وبما شهد من تطورات ، وبالحركة السياسية والاجتماعية التى تدور اليوم حوله . والآستانة مدخل لا يقل عن البوغاز نفسه جمالاً ولا عظمة فى الموقع الجغرافى ، وفى التاريخ ، وفى التطور السياسى .

تخطت الباخرة مرمرة إلى البسفور وإلى الآستانة على مهل ، كأنما تريد أن تمتع ركابها بكل هذا الجمال ، أو كأنما بهرت هى أيضاً برغم مرورها به عشرات المرات . ووقفنا نحن نحدق إلى ظاهر المدينة القديمة العظيمة التى أصبحت غير عاصمة ، والتى شهدت حكم الرومان وبيزنطية وعظمة النصرانية ، ثم اقتحمها محمد الفاتح فأقر فيها حكم المسلمين وجعلها خلفاؤه من بنى عثمان مستقر خلافة المسلمين حتى أجلاهم الأتراك عنها وثلوا عرشهم منها ، وتركوها اليوم مدينة سقط منها تاج الخلافة واسم العاصمة ثم بقى لها برغم ذلك كله جمال الطبيعة وعظمة التاريخ .

وقفنا نجتلى عروس البسفور تتدرج مبانيها صاعدة من مياهه ، مرتفعة فوق التلال السبعة التى بناها عليها قسطنطين كى تضارع المدينة الخالدة والتلال السبعة التى بنيت عليها ، لتكون كما كانت روما عاصمة الدنيا قوة وحضارة . وتتدرج هذه المبانى لتندلع من خلال قباب مساجدها المآذن ذاهبة فى السماء ينادى من فوقها للصلاة كلما آن موعد الصلاة . ومن حول هذه المساجد هابطة نحو البسفور تبدو سقوف وتبدو أبواب هى منازل المدينة ؛ وتبدو ، خلا السقوف وخلا الأبواب ، قصور تشرف كلها على البسفور ، تلاطم جدر بعضها مياه البوغاز البديع ، ويرتفع بعضها فوق الجبال كأنه منارة تهدى السفن ، أو حصن يحمى المدينة من عدوان هذه السفن .

وكان أقرب بناء إلينا قصر ضلمه بخشه ، أم لعله لم يكن أقربها ، وإنما كان أشدها لفتاً للنظر والذهن فبدا لذلك منهما قريباً . والحق أنه أنسانا ماسواه ؛ إذ صرنا لا نحدق إلى غيره ولا نوجه منظاراً مقرباً إلا إلى بديع صنعه ودقة عمارته ، وإلى هذه الأقواس عقدت فوق نوافذه كلها الدقة ، حتى لكأنها قطعة من الدنتلا صنعتها لنفسها سيدة صناع ، محبة لفنها لا تطيق أن ترى فيه إلا كمالا . ومن هذه الدقة البالغة فى التفاصيل تجتمع عظمة قلّ أن تضارعها عظمة . عظمة ليست فى مجرد تجاوب أركان القصر بعضها مع بعض ، فمنه أقسام لا تتجاوب مع سائره ، ولكنها عظمة الاتساق فى فن جميل لا نبو فى قطعة من قطعة ، ولا نشاز فى نغمة من أنغامه ، يدعو جمال كل جزء منه جمال سائره كأنها أنغام تزداد عذوبة

وحلاوة كلما قلت تشابهاً وإن توافقت جواباً . مدخل القصر كأنه قوس النصر زركشت جوانبه بنقوش عربية وأحاطت به عمد عربية كذلك ، وعقدت فوقه شواهد وأفاريز عربية هى الأخرى دقيقة عظيمة . وعلى جانبي المدخل جناحان سما فوقهما عقد القوس كأنه رأس النسر المنتصر . وامتد الجناحان فى دقة عمارة وزخرف بينه وبين زخرف المدخل اتفاق وتجاذب وتجاوب . وبعد أحد الجناحين مقاصير ذات أعمدة وقباب هى للكل خير كمال . وهذا القصر ومدخله وأجنحته ومقاصيره وقبابه هو مأخذ ذهن الداخل إلى الآستانة فوق موج البسفور ، حتى لينسيه مآذن المساجد وتدرج العمائر فوق التلال ، وينسيه قصوراً أخرى لا تقل عن « ضلمه بخشه » جمالا ، ولكنها ليست مثله على مياه البسفور ظهوراً وجلالا .

واقتربت الباخرة من مرساها ، واختفى القصر رويداً رويداً ، وصرنا أمام الميناء وأمام الجمرك ، وأنستنا مشاغل النزول إلى المدينة ما بدا منها على البسفور وما تدرج فوقه وما تحدث به المصريون ممن معنا عن قصر الوالدة أم المحسنين فى بيك ، وعن قصر الخديو فى شبو كلى . ووقفنا نحدق من فوق السطح إلى هؤلاء المستقبلين الذين حضروا على رصيف الميناء ، وإلى هؤلاء الحمالين الذين تدافعوا نحو السفينة . قالت سيدة مصرية من بين السيدات المسافرات : لم يبق الآن فى الآستانة طربوش ! يرحم الله الإسلام ! وضحك من الإشارة سيدات ورجال . وما أدرى أفى ضحك السيدات شيء من الإشفاق على زوال الشارة الحمراء التى كان يتفق فيها الطربوش مع العلم التركى ويثير بها ذكرى الإسلام والخلافة الماضية ؟ فأما ضحك الرجال فأذكرنى برواية قصها علىّ يوماً أحد أصحابنا فى مصر ، ولست كفيلا بصحتها : ذلك أن شيخاً من شيوخ المسلمين ذهب يوماً فى أنقرة لزيارة الغازى مصطفى كمال . وفيما هم يتحدثون مد الغازى يده فرفع عمامة الشيخ عن رأسه ووضع مكانها قبعته هو ، ورجا الشيخ أن يظل كذلك إلى أن ينتهى المجلس . وفى شيخ تركيا كما فى شيوخ الدين جميعاً فى مختلف بقاع الأرض لين لذوى السلطان وأولى الأمر . فامتثل الشيخ لأمر الغازى وظل متقبعاً ، حتى إذا انتهى المجلس استأذن ولبس من جديد عمامته . هناك سأله الغازى : أرأيت ديننا نقص شيئاً بلبسك القبعة ؟ قال الشيخ : لا ، فالدين فى القلوب والرءوس ، لا فى الجبب والعمائم .

وجاء مراقبو جوازات السفر ، فكانوا أول صلة بيننا وبين الحياة التركية . وعهدى بمراقبة الجوازات فى فرنسا وإنجلترا وسويسرا وإيطاليا غير بعيد ، ولكن ما أكبر الفرق ! يكفى مراقب الجوازات فى هذه البلاد أن يطلع على تأشيرة قنصل دولته بإباحة دخولك ليقنع

منك بمعلومات طفيفة تختلف فى مختلف الدول ، ولكنها لا تزيد على السؤال عن سبب دخولك البلاد وعن المدة التى تنوى أن تقيم فيها . أما عمال إستامبول فأمامهم دفاتر قيدت فيها الأسماء ، وأمام كل اسم ما لا يقل عن عشرين « خانة » تستوفى . وأشهد لقد تضايقت من هذه الإطالة . لكنى أشهد كذلك أنها كانت بالنسبة لنا على غير طائل . فمنذ دخلنا الآستانة لم يسألنا أحد أمراً ولم نلق إلا كل تحية وإكرام .

ولعل ما يحيط بالحياة السياسية التركية فى الوقت الحاضر وما عاناه الأتراك أثناء حروبهم من محن ، هو الذى يدعوهم إلى كل هذا الاحتياط والتدقيق .

وأقلتنا الأتومبيلات إلى الفندق فى طرق صاعدة هابطة أذكرتنا مارسيليا والبلاد الجبلية ، وإن لم تذكرنا رصف مارسيليا ، بل أذكرتنا طرق الإسكندرية المؤدية إلى الميناء بأحجارها التى تضطرب فوقها العربات اضطراباً وتحدث فوقها من الضحيج والعجيج ما يصم الآذان ، وأنت مع ذلك مضطر ، إن لم تجد أوتمبيلات ، إلى مقاساة ذلك كله ؛ لأنك لا تستطيع أن تسير على قدميك فوق هذه الأحجار التى تحنى الأقدام من خطوات معدودة .

ونزلنا فندق « بيرا بالاس » فى غرف مطلة على قرن الذهب ؛ فتبدى لنا ، وإن كنا فى قلب الآستانة ، ظاهر من الآستانة جديد . تبدت مساجد تندلع مآذنها فى السماء ، وقصور تأخذ زينتها بالعيون ، وإلى جانب المساجد والقصور منازل متواضعة يقطنها الفقراء ومتوسطو الحال . وتبدى من خلال ذلك كله أتراك اليوم فى قبعاتهم وسراويلهم الأوربية ؛ فكان لنا من هذا الظاهر الذى كشفته لنا غرفتنا صورة صحيحة لإبداع الطبيعة فى وضع الآستانة ، ولهذا التاريخ القديم الذى تمتاز به على كثير من المدائن ؛ وللتطور العظيم الذى يهز اليوم أحشاءها ، والذى لم يكن منه مفر لحياة تركيا الإسلامية وإن كره كثير من المسلمين .

على أن ما يدل عليه ظاهر الآستانة من موقع وتاريخ ونهضة ليس إلا صورة فيها كثير من الخداع يتجلى إذا أنت تغلغلت فى حياة الآستانة أو بحثت فى مختلف نواحيها . ولعل الأكثرين يعرفون عن موقعها الطبيعى وعن تاريخها كثيراً . لكن النهضة الجديدة . وعلاقتها بهذا التاريخ وبهذا الموقع ورجاءها فى مستقبل قريب ، يحتاج إلى شىء من حدس الباحث ، حَدْسٍ قد لا يبعد كثيراً عن الحق ما اعتمد على الملاحظة الصادقة .

الآستانة

موقع ، وتاريخ ، ونهضة

أذكر يوماً من صيف سنة ١٩١٠ ، وكنت بمونتريه من أعمال سويسرا ، إذ أخذ بنظرى مغرب شمس بديع على بحيرة ليمان الساحرة الجمال . وكنت يومئذ أسيح وحدى ولم يكن لى بد من أن أفضى بإعجابى إلى أحد . وكان عامل الأسنسير (المصعد) أول من لقيت فى هبوطى من غرفتى إلى قاعة الطعام ، فسألته هل رأى الشمس وغروبها ؟ ثم لاحظت له : كيف تكون بلاد بها هذه المناظر ولا يكون أبناؤها جميعاً شعراء ! . وابتسم الفتى قائلاً : إن فى سويسرا شعراء ، ولعله كان يستطيع أن يقول لى : ولم لا يكون الناس جميعاً علماء والعلم فى متناولهم جميعاً والجامعات مفتوحة لهم أبوابها . إنما الشعر والعلم والحكمة هبات تخلعها الطبيعة على مختاريها . والذى يفيض إحساسه بمنظر مغرب الشمس البديع على بحيرة ليمان وبين جبال الألب فيتغنى بهذا المعنى صادقاً فى التعبير عن شعوره ، لا يكون إلا أحد الممتازين من أصحاب المواهب .

ولو أنى اليوم كنت فى مثل ما كنت فيه سنة ١٩١٠ من تقدير الإنسانية ومواهبها لألقيت على أهل الآستانة السؤال الذى ألقيته على السويسرى عامل الأسنسير . فكيف تكون بلاد بها هذا البسفور والجبال المحيطة به والتاريخ الذى يتوّجه ، ولا يكون أبناؤها شعراء جميعاً ، بل كيف يشدو بالبسفور وجباله وأقماره وتاريخه أجانب أمثال بيير لوتى وكلود فارير أكثر مما يشدو بها أى تركى ؟ ولكنى اليوم أقل تقديراً لطاقة الإنسانية منذ بدء الصبا . ولذلك كنت أكثر تفكيراً فى العوامل التى أدت بالأتراك إلى ألا يكون من بينهم مئات الشعراء الذين يتغنون بهذا الجمال الساحر بعض ما تغنى العرب بالعيس والبيداء والخيام والأطلال ، ولست أعزو هذا إلا إلى هذا السبب الذى أحسبه متصلاً بعوامل شتى . بعضها براعة جمال البسفور براعة يقصر عنها الوصف ؛ وبعضها تأثر الأتراك بالحياة الدينية من طريق قيامهم بأعباء الخلافة تأثراً أنساهم ما فى هذا العالم الفانى من جمال ؛ وبعضها طبع الأتراك الحربى ؛ وبعضها ما أحيط بالأتراك من عوامل قاسية أقامتها مقتضيات السياسة التى كانت تنظر إلى هذه

الدولة الإسلامية نظرة عدوان وعسف ؛ وبعضها – ولعله أهمها – قلة تقدير الرجال لهذا الجمال ؛ لأن المرأة لم تكن تتوّجه بتاج الحرية السافرة . وكل جمال لا تتوّجه المرأة يقل قدر الرجل له . فالمرأة كمال الرجل ومنبع بقاء الإنسان وخلوده . وهل الجمال إلا كمال ما يراه الإنسان من مظاهر الوجود الباقية بقاء الخلد أو المتجددة تجدداً يجعلها باقية . والآن وقد سفرت المرأة التركية سفور حرية لا سفور ملبس ، وقامت بالشعب التركى نهضة مدنية إلى جانب سلائقه الحربية ، وأصبح يأخذ من الدنيا بنصيب كأنه يعيش أبداً ، فقد انفسح الأمل فى أن يقوم من بين الأتراك ومن بين أهل عروس البسفور أولئك الشعراء الذين يلهمهم خلد الإنسانية المتجسد فى المرأة أسمى معانى الشعر ، فيسبغ خيالهم على هذه البقعة المباركة من بين ما باركت الطبيعة بجمالها وجلالها ما تثيره هى فى نفوسهم الحساسة من صور الجمال والجلال .

والحق أن البسفور والآستانة بعض هذه الفلذات من الجنة فر بها آدم وحواء يوم أخرجهما منها ربهما ، فنثراها فى بقاع الأرض نثراً ، أليس أجمل ما فى الحياة دوام تجددها إلى أن تستقر إلى خلد من السكينة يغنيها عن التجدد ويسمو بها من درجات الحياة إلى مراتب الآلهة ! والبسفور والآستانة خلعت عليهما الطبيعة من دوام التجدد ما يمسك النظر عندهما أياماً وأياماً فلا يرى إلا جديداً . انظر إلى هذه الجبال عن جانبى المضيق تتجدد صورها وألوانها كل لحظة من النهار بتغير الشمس عنها ، وبالسحب تحجبها ثم تهتك حجبها ، وبالمطر يهمى ثم يقلع ، وبالرياح تهز أشجارها وحشائشها أو تذرها مطمئنة ساكنة ، وانظر إلى هذه الصفحة ، صفحة مياه البوغاز ، راكدة مرة ، متموجة أخرى متلاطمة ثالثة ، عابثة بالضوء وأشعته عبثها بالقتام ودكنته . وانظر إلى هذا القمر يحبو سابحاً فى لجة السماء كما تحبو السفن تحته فى لجة الماء ، وكلاهما قرير عين بصاحبه . وانظر إلى ما خلف التاريخ من قصور فى عظمتها تجهم وفى ابتسامتها رهبة ، ومن مساجد ترتفع فوق مآذنها الدعوة إلى الصلاة ينادى إليها اليوم متقبع لا تحجب القبعة ما بينه وبين الله أكثر مما كانت تحجب العمامة أيام كانت تركيا « الرجل المريض » تتنازع دول أوربا على اقتسام تركته . ثم انظر إلى ما أحدثت مدنية اليوم . انظر إلى سيدات تركيا السافرات المتوجات جمال القنن الرفيعة والموج الزاخر كما يتوجن جمال ما فى السماء والماء . انظر إليهن ما يزلن فى إقدامهن إلى الحرية على استحياء من هذه الحرية التى كانت بالأمس تحسب عليهن ذنباً وعاراً ، والتى هى اليوم زينتهن وزينة تركيا رجالا ونساء ، شعباً وقادة .

انظر إلى هذا كله وإلى دوام تجدد صور الجمال فيه يبهرك فيجـل عن وصفك إياه . . ما بالك إذا أنت أمعنت فى ركوبك البسفور صوب البحر الأسود ، فرأيت نفسك تحبو بك السفينة من جمال إلى براعة إلى بهر إلى ذهول لا يرد عليك روعك بعدها إلا موج هذا البحر الأسود المترامى العباب الداكن السحاب ، بما أطلق على مياهه التى تعكس صورة سمائه ذلك الاسم الأسود .

على أنك واجد داخل الآستانة وخلال التلال السبعة التى بنيت عليها أودية وأخاديد لا تقل عن البسفور وجباله شعراً . ذهبت أول ليلة نزلت فيها الآستانة مع أصحاب يقيم بعضهم بعروس البسفور ، إلى ملهى فى حدائق « تكسيم » ، فرأيت فيه ما ترى فى القاهرة وفى الإسكندرية من رقص وموسيقى تقوم بهما حثالات من طريدى الفن الأوربيين الذين لم يجدوا فى بلادهم مرتزقاً ، فهبطوا إلى حيث يتلقف الناس مظاهر مدنية الغرب الغالبة بحذافيرها ، فلا تصل أيديهم أغلب الأمر منها إلا لما يلفظه أهلها احتقاراً واشمئزازاً ، فطلبت إلى صديق لى يقيم بتركيا من سنوات أن نذهب فى الليلة التالية لنشهد منظراً تركيًّا بحتاً . قال صاحبى : إذن فلنشهد منظراً تركيًّا قديماً ؛ فتركيا الحديثة لما تجدد لهوها المعيد لنشاط الحياة . وذهبنا إلى « شفلك بارك » ، وكان الأتوموبيل فى طريقنا إليه يسير فى طرق ترتفع ، ثم ترتفع ، ثم ترتفع ، حتى إذا كنا عنده التوى الطريق منحدراً ، ثم وقفت العربة عند باب دخلنا منه إلى البارك مقابل أجر لا يزيد على خمسة مليمات . ونظرت فإذا وهدة مضيئة تنبعث منها أشعة الكهرباء مختلفة الألوان كما تنبعث أنغام موسيقى تركية رقيقة هادئة . وانحدرنا ثم انحدرنا فى طرق عنيفة الانحدار والأنوار تقترب منا رويداً رويداً أثناء انحدارنا ، فإذا بركة مستديرة من الماء صفت على جوانبها مقاعد جلس إلى بعضها رجال ، وإلى بعضها سيدات ، وإلى البعض سيدات ورجال معاً ، وكل أولئك من صميم الأتراك . ودرنا حول الماء حتى اقتربنا من مكان الموسيقى ومقعد المغنى ، وتخيرنا مكاناً جلسنا إليه . وأجلت الطرف فيما حولى من مرتفع ومنخفض ومن بركة مياه ومن آلات طرب ومن سيدات فى جمال قيان الرشيد ورقتهن ، ثم خلتنا فى إحدى ليالى الخليفة على ماوصفها « ألف ليلة وليلة » ، لا ينقصها إلا الستور من ورائها الجوارى ، وإلا السقاة الحور والغلمان كأنهم اللؤلؤ والمرجان ، لا أولئك الشحوط الخفراء المرتدون ثياب أهل الدنيا من « الجرسونات » .

وشد المغنى على أنغام الموسيقى ، وذكر صاحبنا أنه ينشد أهازيج فى الحب . وكان غناؤه حبًّا شرقيًّا فيه استسلام حلو وعبادة وخضوع . حب لا يعرف الثورة ولا يعرف الانتحار ،

وإنما يعرف الضراعة والرجاء ، ويعرف الشجا والدموع . حب يترفق صاحبه فى النداء باسم محبوبته ، ويرجو الليل أن يحمل على أجنحة الستر إليها رسالته ، فإذا استبطأ الرسالة وحسب أن نداءه ذهب سدى لم يقتحم ستور الليل ولم يهتك حجبه ، بل ازداد رفقاً ، فوصل به الرفق إلى البكاء ، ثم إذا خيط ضعيف من الأمل يبدو فى سواد الدجنة ، فإذا البكاء انقلب رجاء باسماً فى غير ضحك ، ثم يزداد الأمل فيزداد الرجاء معه ، ويضعف الأمل فتغرورق العين من جديد . وبين رجاء يبسم وبكاء لذهاب الرجاء انقضى أكثر من دور من أدوار الغناء ، وانقضى الوقت وقمنا تاركين وراءنا فى « شفلك بارك » فلذة أخرى من سحر الجمال .

* * *

ماذا فعل الإنسان بهذا الموقع الطبيعى من يوم استقر فيه واستعمره ؟ هل حبب إليه هذا الجمال الحياة فشغف بها وهام ؟ أم هوازورّ عن الجمال وعن فتنة الطبيعة والدنيا وكان أكثر عكوفاً على العبادة والزهد كلما كانت الدنيا له أكثر فتنة ؟ فأما ظواهر التاريخ فتدل على أن هذه البقعة باركتها الأديان أن جاهدت هى فى سبيل رفعة الأديان ، وأنها لذلك كانت فى الدنيا وباطل زخرفها زاهدة . ألم يشدها قسطنطين لتضارع روما رافعة لواء المسيحية ؟ ألم تبن فيها « أيا صوفيا » كنيسة لا تقل رهبة ومهابة عن كنيسة القديس بطرس فى روما وإن تخلت لها عن الرشاقة والبهرج ! وظلت مدينة قسطنطين تضارع روما مهداً للنصرانية حتى فتحها المسلمون ، فجعلوا من « أيا صوفيا » مسجداً تقام فيه الصلوات ويؤدى الخليفة فيه فريضة الجمعة . ثم لم يكتفوا بأيا صوفيا ، بل شادوا من المساجد لذكر الله عديداً . ولعلهم شادوها لتشعر إذ تدخل فيها غير شعورك حين تدخل أيا صوفيا . فأنت تبهر ، لا ريب ، بعظمة عمارتها ، وأنت تستشعر فيها الرهبة التى يبعث بها الإيمان إلى القلوب ، كأنك فى حضرة الله ذى الجلال ، لكنك لن تستطيع أن تحول بين نفسك والإحساس بأن هذا المعبد كان كنيسة . وكيف تستطيع ذلك وكل ما حولك ينادى بأصل أيا صوفيا ! هى فى دسامة نقشها وفى تكفيت سقفها وجدرانها بالذهب كنيسة . وهى بالصلبان ما تزال بادية الأثر برغم محوها وطلاء مكانها كنيسة . وهى بوضعها الهندسى وبانحراف قبلة الصلاة فيها عن وسط جدرانها المقابل للباب كنيسة . وكل ما أضيف إليها من مرافق الوضوء ومن منبر الخطابة ومن مآذن الدعوة إلى الصلاة يبدو مضافاً برغم دقة صنعه والعناية باتساقه مع سائر المكان . فوجب أن يشيد المسلمون مساجد لا تقل عنها عظمة وإن استبقوها مسجداً شاهداً بفتحهم وغلبهم .

ولقد فعلوا وبلغوا مما أرادوا كثيراً . وجامع السليمانية لا يقل عن أيا صوفيا عظمة ولا مهابة ولا رهبة ولا جلالاً . شاده المعمار سنان بأمر سليمان القانونى ؛ فجاء آية لإبداع فن المعمار فى عصره . تدخله فإذا أنت يهبط عليك من كل جانب من جوانبه خشوع يمتلئ به قلبك ، وابتهال لله أن يغفر ذنبك . خشوع تبعث به ظلال كأنها الظلمة المنتشرة فى أرجاء بيت الله ، وتبعث به عظمة عمارة المكان عظمة قليل مثلها فى المعابد . عمد ضخمة النقوش ، فوقها قبة كبرى تحيط بها قباب أو أنصاف قباب يمسك الكل سائر سقف المكان ؛ وذلك كله مزخرف بنقوش من القيشانى ومن الذهب فيها عبوس وفيها رهبة . وفى أكثر من ناحية من المكان « مبلغات » وكرسى الكهف ، وكلها كالقبلة وكالمنبر دقة نقش وصناعة . وأنت إذ تجتلى منها آية ذلك وجلاله وجماله لا تنسى السجاجيد سجاجيد هركة مما تطؤه قدمك باحترام وتقديس ؛ لأنه فرش المسجد ، ولأنه بديع جميل . وفيما أنت فى متاعك بهذه العمارة العظيمة إذا رجال ونساء جاءوا إليها لا لمتاع كمتاعك ولكن لعبادة رب هذا البيت فى ضراعة وإنابة . جاءوا فخلعوا قبعاتهم وتوضأوا وذهبوا إلى مكان الصلاة فنحوا القبعات جانباً وصلوا . وكانت السيدة التى تؤدى فريضة ربها أثناء زيارتنا السليمانية منتحية مكاناً من المسجد لعله خصص للسيدات ، ولا أحسبه كذلك بعد إذ أخبرنا الدليل فى « أيا صوفيا » أن الرجال والسيدات يصلون جنباً إلى جنب ؛ لأن أولئك وهؤلاء سواسية أمام الله ، فيجب أن يكونوا سواسية فى بيت الله .

وبين أيا صوفيا والسليمانية جامع السلطان أحمد . وهو إن يك أقل منهما رهبة فله جماله . وفى الآستانة غير هذه المساجد الثلاثة مساجد لا يحصيها العد ، لكل منها رهبة ولكل منها جمال ، وتشهد كلها بأن الأديان باركت هذه البقعة ، فصدف الناس عن جمالها وزهدوا فى الدنيا وباطل زخرفها .

لكنك ما تكاد تذر المساجد ورهيب جلالها وتخرج إلى الدنيا وتطالع البسفور وقرن الذهب من جديد ، حتى ترى أن ظواهر التاريخ هذه ليست إلا ظواهر ، وأن هذه الفلذة من الفردوس فتنت الناس بجمالها فافتنوا فى ألوان المتاع بها ، وأن الذين شادوا هذه المساجد كانوا أشد أهل الأرض تورطاً فى متع الحياة ولذاتها ، وإنما كانوا يخدعون بها الشعب يصرفونه عن السمو بنظره إليهم ويخادعون بها الله يلتمسون إليه زلفى . بل لعل تورط أهل هذه البقعة فى الآثام هو الذى دعاهم إلى كثرة التوجه إلى الله يستغفرونه عن خطايا لا مناص لإنسان من الوقوع فيها وحوله من المغريات بالإثم ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين

انظر إلى هذه الدور الفخمة مما سوى المساجد . هى ليست دور علم ، ولا مدارس

فن ، ولا هياكل حكمة ، ولا متاحف آثار ، وإنما هى قصور بناها الملوك والسلاطين والأمراء والأثرياء لمتاعهم ولذتهم ، وما تزال كذلك إلى يومنا الحاضر إلا الأقل منها . فهذا قصر « تب كابو » الذى كان مقر ملك البيزنطيين فاستولى عليه الغزاة وجعله محمد الفاتح وخلفاؤه الأولون مقرًّا لهم ، قد أصبح اليوم متحفاً يزوره الناس جميعاً . ولكن أتدرى ما الذى يعرض فيه ؟ تحف نادرة مما استولى عليه الغزاة أثناء فتحهم : عرش فارسى نفيس مرصع بالأحجار الثمينة ، وعرش آخر مصرى جاء به السلطان سليم لما غزا مصر ، ثم تيجان سلاطين آل عثمان وخلفاء المسلمين . يالجمال ما كان ينعم به خلفاء أبى بكر وعمر ط كل تاج مرصع بماسات تخر أمامها كل امرأة ساجدة ولو كانت أشد الناس فى الحياة زهداً وإلى الله قربى . وإلى جانب الماس أحجار ثمينة من اللؤلؤ والمرجان والعقيق والفيروز جلت عن الأشباه والنظائر . وهذه التيجان تتتالى واحداً بعد الآخر تحلى عمامات وضعت على رءوس وأجساد من قماش . وتاج كل خليفة يبذ تاج الخلفية الذى سبقه ثراء وسناء . وفى الأجنحة الأخرى من « تب كابو » مقاصير السلاطين ، وكل مقصورة – أو كشك كما يسميه الأتراك – آية فى ثراء التأثيث بالطنافس والمذهبات . وإذا كانت دقة الفن تنقص هذا الأثاث والمقاصير التى تشتمله فإن ما فيه من تكاثر وبهرج مكسال لينطق بحب أصحابه الجم للنعيم يغرقون فيه إلى الأذقان وإلى الرءوس . وإلى ناحية من القصر كشك بغداد يرسم فى نفسك « بكنبه » و « شلته » يضيف إليها خيالك هذه العمائم الكبيرة التى تحمل التيجان ، صورة الترف والرخو الغارق فى أنهار من خمر وفى عبير المسك تنشره الجوارى الجميلات البضات يتخللهن الغلمان يحملون « الشبكات » المرصعة المقابض بالدر والجوهر . هذا و « تب كابو » أقدم قصور الآستانة وأقلها زخرفاً وأكثرها حديثاً عن ثورات الانكشارية ممن كانوا يعلنون العصيان فى فنائه أو فى مياه البسفور التى تطل عليها نوافذه .

ولما انقضى لآل عثمان عهد الفتح واكتفوا بإمبراطوريتهم المترامية الأطراف فى أوربا وآسيا وإفريقيا ، فكر خلفاء محمد الفاتح من السلاطين فى المتاع الجم بالدنيا ونعيمها ، فلم يكفهم « تب كابو » وبنوا قصور « شراغان » و « ضلمه بخشه » و « يلدز » وغيرها ، كما بنى الأمراء والوزراء من القصور ما تتزين به شواطئ البسفور وقمم تلال الآستانة . وفى هذه القصور اجتمع من أسباب الترف ما لم يعرفه لويس السابع عشر ولا غيره من أشد الملوك إمعاناً فى الترف واللذة . زرنا قصر يلدز الذى أصبح اليوم ملكاً عاماً ، فأجرته بلدية الآستانة نادياً للقمار وفندقاً ومطعماً ، فبهرتنا عظمته وجلاله ، وإن لم يأخذ بالنظر

فيه شيء من الفن ودقته . وطفنا أنحاءه وذكرنا قصر فرساى وقصر فونتنبلو بفرنسا وقصر وندرسور بإنجلترا ، وأسفنا أن أصبح مقر خلافة المسلمين وسلطان آل عثمان ملهى وملعباً بدل أن يكون متحفا قومياً أو يكون مدارس ومعاهد للعلم والفن . وفى أثناء زيارتنا القصر رأينا (الأغوات) الذين خدموا عبد الحميد إبان ملكه ما يزالون يحرصون على أن يظلوا فى قصر كان مقر ملكه ، ولو كانوا مع ذلك خدماً لرعاياه وأتباعه ؛ ولو خدموا سيدات من عامة الشعب بدل مئات الجوارى الحسان اللائى كن لإمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين متاعاً ولذة . وكم من قصور كانت كقصر يلدز مباءة شهوات وملعب نسوة يتلهى بها أمير المؤمنين ساعة يستريح من حكم المؤمنين ومن السهر على طمأنينة دينهم ودنياهم وأنفسهم وأرواحهم ! وكقصور الخلفاء كانت قصور الأمراء والوزراء . وكان ما يجبى من هذه الإمبراطورية العظيمة الممتدة من الأناضول إلى العراق إلى عدن إلى مصر وطرابلس وتونس ، ينفق أكثره على ما فى هذه القصور الكثيرة من ملاذ وشهوات يحرص عليها جمال هذه البقعة الساحرة من بقاع الجنان . فأما الشعب فى تركيا وفى الإمبراطورية جميعاً فكان عبداً يستغل لسد حاجات هذه الشهوات ، ثم تشاد له المساجد ليسمع فيها من الوعظ ما يزهده فى الدنيا ومتاعها طمعاً فى الآخرة ونعيمها ، فلا يسمو بنظره إلى هؤلاء المختارين لسعادة الدارين بالملك وبالخلافة ، ولا يسألهم عما يستنزفون من عرق جبينه حساباً .

على أن الشعب التركى المقيم مع حكامه على ضفاف هذه الفلذة من الفردوس لم يكن يستطيع أن ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يتخلص من فتنة البسفور وسحره وإن كان هذا النصيب من فتات متاع الخلفاء والعظماء . وإن كان ما يقصه الكتاب وما ترويه الأقاصيص عن افتتان طوائف الأتراك جميعاً فى ألوان المتاع بل فى التمتع بمتاع الآخرين ، ليس إلا أثراً محتوماً لهذا الجمال الذى خلعته الطبيعة على بقعة الأرض التى يعيشون فيها . فما من لذة أو متاع مما تشتهيه الأنفس إلا تسمع للترك فيه فنوناً لا تجاريهم فى مضمارها أمة من الأمم .

هذا الانهماك فى أسباب اللذة بعد استتباب أمر المماليك المفتوحة للأتراك هو الذى نزل بتركيا من مكان عزتها شيئاً فشيئاً ، حتى جعل منها « الرجل المريض » زماناً طويلا . وهو كذلك الذى أثار من خلاله تركيا الفتاة . وهو الذى أدى آخر الأمر إلى نهضة تركيا الحديثة نهضة مكنت فيها الديمقراطية وأجلت عنها عوامل الاستهتار والفساد . وهذه النهضة هى التى جعلت من « يلدز » العاتية ملعباً للشعب ، ومن شبان العصر الحاضر القوة الحاكمة لتركيا الحديثة . ومظاهر هذه النهضة هى ما نرى فى تركيا كلها وما نرى فى الآستانة من

انتقال من أحلام « ألف ليلة وليلة » إلى الواقع المحسوس من حكم المدنية الغربية واستعلائها .

* * *

وتتلخص النهضة التركية فى الآستانة وفى غيرها فى عبارة بسيطة : الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية ، وجعل علاقات الناس بعضهم ببعض زمنية كلها خاضعة لمبادئ الديمقراطية يمتد إليها جميعاً سلطان التشريع الذى يقوم به نواب الأمة ، وقيام هذه النهضة بالإصلاح المستمد من الحضارة الغربية ، وإقامة ذلك على أمتن أسس ممكنة ، وتطبيق آثاره بقوة القانون على كل مظاهر الحياة . وكانت أولى مظاهره البادية للعيان هى الملبس . فكان العهد القديم يجعل لكل طائفة لباسها : يجعل لرجال الدين لباساً ، ولطوائف السراة لباساً ، وللفقراء لباساً ، كما كان يقضى بحجب المرأة عن الاشتراك فى حياة الجماعة ؛ فقضت النهضة الديمقراطية على هذه المظاهر المتباينة ، وجعلت لباس أهل الحضارة الغربية (القبعة) لباس الناس جميعاً ، كما حررت النساء وجعلت القبعة أو ما فى صورة القبعة لباسهن جميعاً أيضاً . وإذن فقد أصبحت الآستانة متماثلة فى صورة أهلها . حدثنى صديق قال : كان المعممون فى تركيا يحتشدون فى ميدان فسيح فيها ، فلا تكاد ترى غير بياض العمامة غطاء للرءوس . وكان هؤلاء يتخذون من لباسهم الذى يشبه المسوح وسيلة لامتيازات تخليهم من التكاليف العامة كالجندية وغيرها ، وكانوا إلى جانب ذلك سبب ارتباك مستمر بسبب ما يخلقونه فى نظام الحياة وفى سبيل التطور من مشاكل وعقبات . فلما زال هذا اللباس زالت معه الامتيازات والمشاكل ، وأصبح الحكم للقانون وحده ، وأيقن الناس أن نظام الطوائف فى منافاته للديمقراطية يعطل كثيراً من صور الحرية . فاستراحوا إلى هذه المساواة الجديدة أيما استراحة . وكان النساء يخرجن فى ملابس مختلفة يدل بعضها على العظمة أو الاستعباد ، فصرن جميعاً يخرجن سافرات ، ويلقين الرجال ويتحدثن إليهم ويبعثن إلى نفوسهم شعر الحياة والتعلق بها والعمل فيها ؛ لأنهن صرن قوى ذات نشاط ، لا مجرد متاع وضيع . وقوّى الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية هذا الروح الجديد : روح المساواة ، وبعث إلى نفوس الناس جميعاً شعوراً بالكرامة الإنسانية يتساوى فيها الكل لا فارق بين غنى وفقير وعامل وصاحب مال .

ومظاهر الحياة فى الآستانة تشهد كلها بصدق ما قال صاحبى . وإن كانت آثار الماضى ومفاسده ما تزال تبدو هنا وهناك فى كثير من المظاهر مما لم تمكن الأحوال العامة الدولة من إصلاحه ، ومما لم تستطع النفوس التخلص منه فى هذه البرهة الوجيزة التى انقضت على

الإصلاح الوليد منذ أربع سنوات . فأنت لا ترى اليوم فى الآستانة ما لا تزال تراه فى القاهرة من أزياء مختلفة يقصر دون تباينها واختلافها كل ما خلق الخيال عن برج بابل ، بل ترى تناسقاً ووحدة يتفق فيها الأتراك وغيرهم من أهل الحضارة السابقة . وبذلك قضى الأتراك على نظام الطوائف الذى كان يشعر بنضالها وعدوانها ، وقضوا كذلك على شعار ليس من الدين ولا من مقوماته فى شىء ، ولكنه كان مظهر حرب دائمة بين أهل الأديان المختلفة ، قد تتفق مع روح العصور الماضية ولكنها تنافى الروح الزمنية الحاضرة ، وينكرها المعنى السامى الذى يجعل الإيمان صلة روحية بين المرء وربه لا يخضع لقانون ولا يحدده سلطان ، على حين يحدد القانون صلة الإنسان تحديداً يختلف حسب ما يقضى به خير هذه الصلات ، ويتغير ما تغير تقدير الناس للحياة وسعيهم فيها .

ومظهر النهضة التركية فى تحرير المرأة أجلى وأجمل وإن كان قد استثار أسف كثيرين من الكتّاب الأوربيين الذين كانوا يعجبون بحجابها الرقيق الذى يحيطها بالأسرار ، كما كانوا يرون فى زيها وفى زىّ الرجال ما يجعل الآستانة متحفاً لعاديات تبدو كأنها من الأحياء ، ولها فى نظر هؤلاء الكتاب بهاء الآثار القديمة وجمالها . قضت النهضة على هذه الصورة ، وجعلت حياة تركيا حياة حاضر ؛ لأن الأتراك يريدون – على حد تعبير قوى لتوفيق رشدى بك وزير الخارجية التركية – أن تكون لهم متاحف فى المدن ، لا أن تكون مدنهم متاحف . فكما تساوى الرجل التركى بالرجل الأوربى فى مظهره ، تساوت المرأة التركية بالمرأة الأوربية فى حريتها وفى زيها . فأنت ترى الطرقات مكتظة بالرجال والسيدات على السواء ، وترى مساواة فى الحرية قد خلقت بين الجنسين الاحترام ، وترى المرأة ازدادت بذلك نشاطاً وجمالاً . لم تبق الفتاة التركية الغضة البضة الكاعب اللعوب ، ولم تبق نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل ، ولم تبق أنوثتها تلك الأنوثة المبالغ فيها إلى حد لا تبقى معه لها غاية من الحياة غير إرضاء الرجل ومتاعه . بل أصبحت المرأة التركية إنساناً كالرجل : تكاتفه فى الحياة وتعاونه فى القيام بأعباء النهضة . تراها وإياه فى الطرقات وفى المنتديات العامة وفى أسباب السعى جنباً إلى جنب محتفظة بكل المعانى الإنسانية . وأنوثة المرأة إحدى هذه المعانى التى يجب أن تكمل من غير أن تجنى على كمال سائر المعانى الإنسانية . وبذلك رقيت المرأة ورقت . وبذلك صارت قوة فى الحياة ، وصارت شعراً ذا معنى إنسانى . وبذلك استحقت المحبة الصحيحة والإجلال والاحترام .

إلى جانب هذين المظهرين البارزين من مظاهر النهضة فى الآستانة ترى نشاطاً فى كل

نواحى الحياة يؤذن بأن ينقل تركيا إلى الحضارة ، إذا لم تك فى العناصر الرجعية حياة باقية ، وسمحت موارد الدولة باستمراره . والحق أن الآستانة بحاجة إلى أموال طائلة لتكون مدينة كبيرة يتفق مجهود الإنسان فيها مع ما حبتها الطبيعة به من جمال . فهذه القصور وتلك المساجد لا تكفى مظهراً للجمال الذى يخلعه سعى الإنسان على مدينة خلعت عليها الطبيعة ما خلعت على الآستانة ، بل يجب أن يغمر ما يجمل به الإنسان مدنية المدينة كلها وكل ما فيها ومن فيها ، لا أن يكون وقفاً على أفراد ، هم أهل الحكم والمتصلون بهم . ولأهل تركيا فى القائمين بأمرها اليوم رجاء يمكن أن يتحقق ، إذا لم تقم لعناصر الماضى قيامة من جديد .

على أن النهضة التركية أبعد مدى وأعمق أثراً مما يتجلى فى هذه المظاهر التى ترى فى الآستانة . وقوتها على العناصر الفاسدة ومقدرتها على النهوض بتركيا يستحقان عناية تجعلنا نفرد لهما الفصل الآتى .

النهضة التركية

ليست ابنة اليوم ، ولا خلق مصطفى كمال ، هذه النهضة الاجتماعية التى تبدو مظاهرها اليوم فى الآستانة وفى غير الآستانة من بلاد تركيا . إنما يرجع تاريخها إلى زمن بعيد لا يقف عند سنة ١٩٠٨ حين أعلن الدستور العثمانى ، بل يرجع إلى حين تألفت جمعية الاتحاد والترقى ، وإلى ما قبـــل ذلك حين وضع المرحوم مدحت باشا دستور الـدولة العثمانية الأولى ، وحين قام الأمير صباح الدين يدعو إلى اللامركزية . من ذلك الزمن القديم فى التاريخ فكرت الأدمغة الصالحة فى تركيا فى نهضتها الصحيحة . لكن الخليفة العثمانى وما حوله من عوامل الرجعية كانوا يومئذ من القوة والبطش بما أضاع نتائج هذه المجهودات الأولى ، وإن بقى لها من الأثر فى نفس الشعب التركى ما جعله على أتم استعداد لتأييد حركات الإصلاح . فلما تألفت جمعية الاتحاد والترقى وأعلنت نهضة تركيا الفتاة ونجحت بتأييد الجيش فى إلزام الخليفة السلطان عبد الحميد أن يعلن الدستـور ، كانـت تركيا مستعدة للتضحية فى سبيل تأييد هذه الحركة ، وإن كانت الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف أقل من تركيا لهذه التضحية استعداداً . ثم إن الأتراك أنفسهم لم يكونوا يومئذ ينظرون للعرب نظرة النظير للنظير ، بل كانوا يشعرون بأنهم غزوا البلاد العربية كلها غزواً وفتحوها بحد الحسام . ونشأ عن ذلك أن لم تلق فكرة اللامركزية ولا فكرة مساواة الممتلكات بتركيا نجاحاً يربط دائرة الإمبراطورية العثمانية المرنة برابطة تجعل كل جزء من أجزائها يذود عن حياضها بالحماسة والغيرة اللتين تذود بهما تركيا ، ويدفع كل معتد على أى جزء من الإمبراطورية كأنه معتد على كيانه الخاص وعلى استقلاله وعزته .

وأدى وقوف تركيا هذا الموقف من ممتلكاتها إلى نتائجه اللازمة إبان الحرب الكبرى . فعلى الرغم من أن تركيا كانت دولة الخلافة الإسلامية ، ومن أن هذه الممتلكات كانت إسلامية كلها ، فإن مظالم عصر الاستبداد التركى الذى سبق الدستور وعدم الاعتداد بلا مركزية هذه الممتلكات بعد الدستور ، وقفها من تركيا إبان الحرب غير موقف المدافع عن كيانها . بل إن الحجاز انتقض على تركيا جهرة بزعامة الملك حسين بن على ووقف فى صف الحلفاء . وانتهت الحرب بانحلال تركيا انحلالا أيأس منها المسلمين وأيأس كثيراً من أبنائها ، وأطمع اليونان أن تعلن الحرب كى تصل أو يصل الحلفاء إلى اغتنام الآستانة . ثم كانت هذه المعجزة من معجزات التاريخ ، وكان هذا النصر الباهر الذى أحرزه مصطفى كمال .

فأجلى به اليونان والحلفاء عن بلاده ، وطهرها من سلاطين آل عثمان الخلفاء ، وأقر لها صلح لوزان ، وألغى منها الامتيازات الأجنبية ، وجعلها دولة فى مصاف الدول العزيزة المحترمة .

لكن هذا النصر لم يرد شيئاً من ممتلكات تركيا ، ولم يعد إليها إمبراطوريتها القديمة المترامية الأطراف ، بل بقيت حدود تركيا لا تضم بين جوانبها غير الأتراك . على أن هذا الذى أصاب تركيا كان له أحسن الأثر فى نهضتها الاجتماعية ؛ فقد أزال كثيراً من العوائق التى كانت تقف فى سبيل النهضة التركية . وآن للأتراك أن يقيموا حياتهم الاجتماعية على أسس سليمة ثابتة غير متأثرة بمخلفات الماضى وملكه وخلافته ، ولا بالإمبراطورية المشتملة على عناصر شتى غير العنصر التركى الذى كان يعد نفسه سيداً لها وحاكماً .

وأول ما أفادته النهضة التركية من هذا الوضع الجديد ، ومن انتصار مصطفى كمال وانتشاله بلاده من الاضمحلال ، أن أمكن تطبيق المبادئ الديمقراطية الصحيحة على ما يفهمها أهل هذا العصر الحاضر تطبيقاً دقيقاً ، والتخلص بذلك من المساومات فى المبادئ ، مساومات كانت السبب فى القضاء على كثير من النهضات ، فهذه المبادئ الديمقراطية هى التى سعى إليها الذين ظفروا بدستور سنة ١٩٠٨ ، وهى التى أراد رجال تركيا الفتاة وأعضاء الاتحاد والترقى أن تستظل تركيا بلوائها . لكن دستور سنة ١٩٠٨ ما كاد يعلن حتى رحب به سكان الدولة العلية على السواء ؛ لأن كل طائفة من الطوائف كانت تحسب الاستبداد القديم مقيداً لها ، وكانت ترجو فى النظام الجديد محققاً لمطامعها الخاصة . ولو كانت هذه الطائفة بطبيعة تكوينها خصما لدوداً للديمقراطية ؛ لأن طبيعة النظام الديمقراطى لا تقر الطوائف . رحب بهذا الدستور رجال الدين ، كما رحب به رجال المال ورجال الاعمال ، واجتهد كل أن يخضعه لمطامعه الذاتية . ونشأ عن ذلك أن الذين أحدثوا الثورة من أجل الدستور وخلعوا عبد الحميد فى سبيل توطيد دعائمه ، انقلبوا هم أيضاً يتلفتون يمنة ويسرة يبحثون عن أعداء النظام الذى أقاموه ليقلموا أظافرهم ، كما كان عبد الحميد يبحث عن أعداء نظام الملك المطلق والخلافة الإسلامية ليقضى عليهم فيقضى على أعداء الله والملك .

طوعت إذن ظروف تركيا الجديدة لمصطفى كمال وأعوانه أن يحطموا قيود الماضى ، وأن يعمموا النظام الديمقراطى فى إصلاحهم على وجه صحيح . وكان أول ما صنعوا من ذلك أن ألغوا أول مظهر من مظاهر نظام الطوائف : ألغوا الرتب والنياشين فيما عدا صفوف الجندية . ثم ألغوا طائفة رجال الدين بوصفها طائفة ، وإن جعلوا للتعليم الدينى فى جامعتهم مقاماً محموداً . فلم يبق أولئك الباشوات ولا أولئك المشايخ الذين يعيشون من لقبهم

لا من شيء آخر ، والتزم الكل أن يلبسوا لباساً واحداً هو لباس أهل أوربا . لم يستثن الإصلاح منهم أحداً إلا أفراداً هم الموثقون الشرعيون الذين يحملون ترخيصاً خاصاً بلبس العمامة وأداء وظيفتهم . ولكيلا يكون هذا الإصلاح مظهراً للإصلاح وبني ، وليكون إصلاحاً حقيقياً ، قامت حوله حركة نشاط كبيرة فى مرافق الحياة المختلفة ؛ إذ قررت الدولة مجانية التعليم بجميع درجاته الابتدائية والثانوية والعالية ، كما قررت إجبارية التعليم الأولى ، وخصصت من ميزانية قدرها مائة وثمانون مليوناً من الجنيهات التركية (حوالى ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات المصرية) سبعة ملايين ونصف مليون جنيه تركى للتعليم الثانوى والخاص ومليون جنيه للتعليم العالى . فأما التعليم الأولى والابتدائى فتتعهده مجالس الولايات (مجالس المديريات) وتنفق عليه وتنفذ القوانين الخاصة به تنفيذاً دقيقاً .

ويقابل هذا النشاط فى التعليم نشاط فى مرافق الدولة الأخرى ، وإن وجب الاعتراف بأن ظروف تركيا المادية من جهة ، والعقلية التركية المحافظة بطبعها من جهة أخرى ، وتاريخ التطور التركى فى العصور الأخيرة وما تأثر به من انكماش عن الإصلاح الواسع المدى من جهة ثالثة — كل ذلك ما يزال بادى الأثر فى الإصلاح ومظاهره . وإنى ليخيل إلىّ أن مدينة كالآستانة لها مالها من جمال موقع وعظمة تاريخ ، ما كانت لتترك كما هى متروكة اليوم من غير عناية بتجميلها لو أنها كانت فى يد غير يد الأتراك ، ولوأن النهضة الحالية كانت غير النهضة التركية سواء أكانت الآستانة عاصمة الدولة أم لم تكن . ولم يتح لى أن أجوس خلال تركيا الداخلية لأحكم حكماً صادقاً على مبلغ نشاط النهضة فيها . لكن الذين رأوا أنقرة يشهدون بسرعة تقدمها ، كما أن مظاهر الحياة فى الآستانة نفسها أكثر نشاطاً .

زرت جماعة من رؤساء تحرير الصحف التركية ، وكان مما سألت أحدهم عنه ما قاموا به من جهود ليرقوا بالصحافة إلى حيث هى اليوم : جمال طباعة وتصوير وورق ؛ فكان جوابه أن النهضة العامة أدت إلى هذا الرقى ؛ لأنها أدت إلى زيادة فى التضامن وفى اشتباك المصالح وفى كثرة تداولها ، وفى تزايد تداول الأفكار والآراء معها . فكان لزاماً أن ازدادت مقطوعية الصحف ، فأقبل أهلها على تحسينها فى حدود مواردهم . وكلما قويت النهضة وتشابكت المصالح وازداد النشاط ، وجد الكل الدافع إلى الرقى والإصلاح .

لكن أمراً يلفت النظر إلى هذه النهضة التركية ويدفع إلى المساءلة عن مبلغ ثباتها وعدم تعرضها لرد فعل يعود بتركيا إلى مثل ما كانت أو إلى شيء منه ؛ ذلك أن هذه النهضة

تبدو كأنها ليست أثراً محتوماً لتطور طبيعى ، وأنها مصنوعة على يد مصطفى كمال وأصحابه الذين فرضوها على تركيا فرضاً من طريق التشريع ، وألزموها الأخذ بها بقوة القانون وبما وراء القانون من الجندى وسيفه ومدفعه . فالرتب ألغيت بالقانون . والعمائم ألغيت بالقانون . ولبس الرجال القبعة والزى الأوربى بالقانون ، وسفرت النساء وخرجن إلى مجتمعات الرجال بالقانون . فإذا حدث ، لسبب من الأسباب أن جاءت حكومة غير هذه الحكومة وألغت هذه القوانين ، ابتهج الناس أيما ابتهاج بالعودة إلى سيرتهم الأولى ، ولم يجد هذا الإصلاح الحاضر من يؤيده وينصره ويقف فى سبيل تداعيه وعودة الحال الأولى .

هجست هذه الخواطر بنفسى ، وجعلتنى أشفق على هذه النهضة الديمقراطية الجميلة من الرجعية ومن رد الفعل ، فأفضيت بها إلى رؤساء تحرير الصحف الذين زرتهم وسألتهم رأيهم فيها ؟ فاطمأنت نفسى إلى جوابهم وإلى هذه النهضة التى خفت عليها . قال قائل منهم ، إن هذه النهضة ليست بنت المصادفة ولا ثمرة شهوة من شهوات مصطفى كمال ، ولكنها بنت الحاجة ، حاجة ماسة كانت تشعر بها الأمة فى أعماق نفسها ، ولكنها كانت تلقى من بعض الطوائف معارضة باسم الدين . وكان رجال الحكم الماضى يؤيدون هذه المعارضة حرصاً على نفوذهم الذى يظل قوياً فى رأيهم ما بقيت طوائف كثيرة يعارض بعضها بعضاً عن النظر إلى الاستبداد ومظالمه . ولأضرب لك مثلا : حاجة كان يشعر الكل بها وكان الكل يخشى من المطالبة بالإصلاح لسدها ، تلك هى المحاكم الشرعية . لم يكن رجل ولم تكن امرأة ألقت به أو بها المقادير فى براثن هذه المحاكم إلا كان يعلو منها ضجيجه ، وكان يرى فيها المفاسد بأنواعها مجسمة ، وكان كثيرون يتحدثون عن هذه المفاسد ويصفونها بأقبح الصفات . مع ذلك لم يجترئ أحد على المطالبة بإلغائها مخافة الصيحة باسم الدين : فلما سنت الجمعية الوطنية القوانين المدنية وألغت المحاكم الشرعية ، ويسرت إجراءات الأحوال الشخصية كما تيسر غيرها من قبل ، شعر الكل كأن كابوساً زال عن صدورهم ، وفرحوا لهذا الإصلاح أى فرح . ولن يستطيع حاكم بالغة ما بلغت قوته أن يعود بهم إلى ذلك النظام العتيق القديم الذى كان موضع شكواهم جميعاً .

وقال آخر وكنت أحدثه عن المرأة التركية وسفورها واختلاطها بالرجال : لا تصدق أن القانون هو الذى دفع المرأة لتسفر وتتمتع متاعاً صحيحاً بحريتها . فالمرأة كانت تشعر بالحاجة إلى ذلك شعوراً قوياً ، لكنها كانت تجد فى سبيلها أوهام العامة ومحافظة رجال الحكم واستبقاءهم هذه الأوهام . وكل ما فعله القانون الجديد أن أزال من سبيلها هذه

الأوهام ؛ بأن جعل العامة يشكون فى صحتها و فى اتصالها بالدين . فلما زال العائق اندفعت المرأة إلى السفور وإلى الحرية كما يندفع الماء الحبيس فيزول فى اندفاعه أسنه ، ويروى كذلك الأرض لتنبت بهجة وجمالاً . والعامة اليوم تنظر إلى سفور المرأة وإلى اختلاطها بالرجال نظرة سرور وطمأنينة ؛ لأنها رأت كذب ما كان يزينه لها الرجعيون وأعداء الحرية ، وأحست إحساساً صادقاً بما فى الحرية من جمال وبما يترتب على الحرية من تبادل الاحترام .

قال محدثى : ولو أنك كانت أتيحت لك فرصة التحدث إلى السيدات التركيات فى منازلهن لسمعت منهن كثيراً ، فهن يذكرن الحرب والنصيب الذى قمن به فيها ، ويذكرن اشتغالهن حينئذ بكل شؤون الحياة ؛ لأن الرجال جميعاً كانوا فى خطوط القتال . مدى ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩١٤ حين أعلنت الحرب العظمى إلى سنة ١٩٢٢ حين ألقى مصطفى كمال بجيوش اليونان وراء أزمير ، وهن متوليات أمور الحياة كلها . وهن لما تولين منها صالحات مدبرات حكيمات . أفتكون المرأة كذلك يوم البأس والشدة ، فإذا استقر السلم فى نصابه وآن لكل أن يجنى نصيبه يكون نصيبها أن تسجن من جديد فى عقر دارها وأن يسدل على وجهها السواد ؟ كلا ! هى تحتفظ بحريتها وقد كان لها فى تحرير بلادها نصيب ، وهى تحتفظ بالحرية فى كل مظاهرها ، وتعرف كيف تجعل هذه الحرية موضع الاحترام والإجلال .

وهذا حسن ويدعو إلى كثير من الطمأنينة على هذه النهضة التركية الحديثة . لكن استمرارها يحتاج إلى جهود عظيمة لا محل للخوف على استمرارها ما دامت الحال فى تركيا كما هى اليوم ، ومادام التشريع يسرع إلى علاج كل نقص يخشى تسربه إلى حركة الإصلاح لكن هذه السبيل فى تعهد الحركات الاجتماعية استثنائية بحتة . وما لم تجد الحركة فى الشعور العام مؤيداً لها ومن رجال الفكر والقلم أنصاراً وأعواناً ، فإنها تتعرض للخطر متى دب إلى النفوس أنها حركة صناعية . لهذا لفت نظر بعض الذين حدثتهم وأبديت لهم أن العلماء والكتاب هم عمد النهضات القومية أكثر من التشريع بما يبثونه من ثقة فى النفوس بهذه النهضات ، وبما يخلقونه من جو يجعل الرجعة مستحيلة . وسألتهم عن الجامعة والعلماء والكتاب فى تركيا وما ينفقون من جهود فى هذا السبيل . قال رئيس تحرير « وقت » : ما زال تأييد النهضة الحاضرة فى بداءته من جانب الجامعة والعلماء ؛ لأن هؤلاء لا يزالون فى أول العهد بنهضتهم العلمية ، فهم فى أشد الحاجة إلى وقف كل جهودهم على نجاحها

ومتى نجحت فسيكون لها ولا ريب من الأثر فى دعم النهضة ما لسائر الجامعات فى أنحاء العالم المختلفة . لكن لنا فى تركيا الحاضرة من هذه الدعامة بديلاً متيناً ، تلك، هى الأندية التركية . هذه الأندية منبثة فى كل ناحية من أنحاء المملكة ، وتضم بين أعضائها عشرات الألوف من الأتراك المستنيرين الذين أخذوا على عاتقهم تأييد النهضة الحاضرة وبث روحها فى نفوس الشعب بكل الوسائل الناجعة . وهى تعمل إلى جانب عمل الحكومة الرسمى عملاً معنويًّا عظيماً لا يقل أثراً فى نتيجته عن التشريع وعن التنفيذ . ولقد بلغت هذه الأندية من النجاح فى بث الدعوة وفى تنظيم الحركة الاجتماعية بما تذيعه فى الناس من دروس وتعاليم حظًّا عظيماً ، حتى لقد أرادت بعض ولايات الدول الشرقية المجاورة أن تنظم أندية تنضم إلى الأندية التركية . لكن حركتنا قومية بحتة . لذلك تركنا لهؤلاء المجاورين أن يؤسسوا أنديتهم إن شاءوا من غير أن يكون لنا بهم اتصال ، حتى لا تبعثر مجهودات تركيا ولا تضل بها المطامع والأوهام . وعمل هذه الأندية لا يقل عن عمل الجامعات والكتاب قيمة . لأنه صادر عن اقتناع وإيمان . فليس عضو من أعضائها إلا يشعر بأن واجبه فى هذا السبيل لا يقل عن واجبه فى الدفاع عن الوطن حين كان الوطن فى خطر ، وحين كان كل تركى يقدم حياته فى الحرب طائعاً فداء لوطنه .

ولقد قرأت فى بعض ما كتب عن تركيا وأنديتها ما أيد أقوال محرر « وقت » من أن المجهود المعنوى الصادق الذى تحتاج إليه النهضات لنجاحها يبذل فى تركيا على خير وجه وبكل إخلاص وصدق . وهذا باعث جديد من بواعث الاطمئنان على هذه النهضة وعلى استمرارها . لكن ذلك لا يزيل كل المخاوف . فهنالك دعامة أخرى من دعائم النهضات لست أدرى أتستطيع تركيا الحصول عليها أم لا تستطيع ، تلك هى الدعامة المادية . فكل نهضة نفسية تحتاج كى تتم ثقتها بنفسها إلى أن ترى آثارها ومظاهرها محققة فى الواقع وأمام العيان . وقد يكون لدى الشعب من الأناة ما يحول دون استعجاله هذه الآثار وما يحمله على التريث والانتظار . لكن من الشعوب العَجِل الذى يريد أن تتحقق كل مطامعه فى سنوات قلائل . ولست أستطيع الحكم على النفسية التركية فى الوقت الحاضر . لكن شؤون تركيا المادية لا تدفع إلى النفس الاعتقاد بإمكان تحقيق كثير من المظاهر المادية للنهضة الحالية فى زمن قصير . فتركيا تنفق قسماً كبيراً جدا من ميزانيتها الصغيرة فى شؤون الجيش والدفاع القومى . ومواردها محدودة لا يبدو أنها تسمح بزيادة فى الضرائب وفى إيرادات الميزانية فى زمن قريب . وما تحتاج إليه تركيا من إصلاح تدعو إليه النهضة كثير جدًّا . فالآستانة

كما رأيت متحف تاريخ قديم أكثر منها دار حضارة هذا العصر الذى نعيش فيه . وهى اليوم ، وأحسبها ستبقى زمناً طويلاً ، مرآة تركيا لأبنائها وللنازحين إليها . ولن تستطيع السياسة وأحداثها أن تسلب مدينة لها ما لموقع الآستانة من روعة ، حق الأولوية والسبق وميزة أن تكون عروساً بين مدائن العالم المتمدن . ثم إن ما يقال عن إنشاء أنقرة والسير فى ذلك سيراً سريعاً ، لا يدل على أكثر من نشاط الأتراك نشاطاً عظيماً فى سداد حاجاتهم السياسية التى يقتضيها موقفهم الحاضر . لكن مظاهر النهضات من مقتضيات الحضارة . فآثار الفن الجميل من متاحف وتماثيل ومن نقوش وصور ، ومظاهر العلم من متاحف فنية وزراعية وصناعية ، ومظاهر الحضارة فى نظام المدن — ذلك كله فى حاجة إلى موارد مادية عظيمة جداً أخشى أن تكون تركيا الحاضرة عاجزة عن تقديمها ، وربما ظلت كذلك زماناً طويلاً .

فإذا كان الشعب التركى شعباً عجلاً يريد أن تحقق النهضات كل آماله فى سنوات ، كان هذا العجز المادى موضعاً من مواضع الخوف على النهضة الحالية . وأما إن كان له من الأناة والروية والصبر ما يمكنه من تقدير ظروفه ، ومن السير فى حدود موارده ، ومن الاغتباط بالنتائج التى يجنيها شيئاً فشيئاً ، فإن النهضة ستؤتى كل ثمرها وإن احتاج ذلك إلى عشرات السنين . وكل ثمرة جديدة تزيد الموارد المادية وتزيد النهضة ثباتاً وقوة .

وأكبر الرجاء أن تكون جهود الشعب التركى فى العمل السلمى عظيمة كما كانت جهوده فى الحرب . فإن أثر هذه النهضة لا يقف عند تركيا ولا تحده حدودها ، بل هى نهضة لشعوب الشرق كلها . هذه الشعوب التى كان الكثير منها خاضعاً لحكم تركيا المستبدة ، متأثرا بنظمها وبأوهام القائمين بالأمر فيها ، لكأنما كانت تركيا تلك حائلاً بين المدنية والتقدم وبين الشرق النشيط التواق للمدنية والتقدم . وهذه الشعوب ناهضة كلها اليوم نهضة جليلة مباركة تمسك مصر منها بالزمام . فكل نجاح تلقاه النهضة فى أحدها هو نجاح للنهضة فيها جميعاً . وكل تغلب من جانب الأتراك على ما يمكن أن يقف فى سبيل نهضتهم تحطيم لهذا السياج القديم الذى حال أجيالاً طويلة بين الشعوب التى كانت تشملها الإمبراطورية العثمانية وبين التقدم والعمران . وتحطيم هذا السياج يفتح باباً جديداً لسيل المدنية من الغرب إلى الشرق ، ولسريانها من الشرق الأدنى لتتصل بمدنية الشرق الأقصى التى تقدمت فى القرن الأخير تقدماً أدهش العالم كله .

وهذا الرجاء الذى يجيش بنفس كل صادق الإخلاص للإنسانية فى تقدمها لترفع

منار الحضارة إلى أسمى ذراه ، يدعونا إلى تأييد هذه النهضة التركية بكل ما لدينا من قوة ، وإلى الأمل أكبر الأمل فى تذليل المصاعب المادية التى قد تقف فى سبيلها وقد تجعل للرجعية باباً تطل منه مرة أخرى . على أنا ننظر للمستقبل وكلنا ثقة بأن باب الخوف هذا لن يفتح ، وبأن تركيا الناهضة ستجنى من نهضتها الاجتماعية خير ثمراتها ، وبأن الشرق كله سيجنى مثلها ثمرات نهضاته ، فتتطحم بذلك قيود الاستعمار ، وتسير الإنسانية إلى الأمام متكاتفة متضامنة لا يذل فيها شعب لشعب ، ولا فرد لفرد .

من الآستانة إلى بخارست

وداع الآستانة – البسفور والبحر الأسود – بخارست ورومانيا

صباح الخميس ٨ سبتمبر ، جلست إلى نافذتى أجيل البصر فى قرن الذهب وفيما وراء قرن الذهب من مبانى الآستانة . بعد سويعات سأركب الباخرة إلى قسطنزة ثم إلى بخارست فى طريق إلى باريس . وبعد سويعات تختفى هذه المناظر عن عينى . ومن يدرى ! أيتاح لى أن أراها فى حياتى مرى أخرى ؟ هذه القباب والمآذن الذاهبة فى السماء محدثة عن المساجد تحتها ، أبدع فيها الفنانون ما شاء لهم المعمار ، أو هى قباب ومآذن ليس فيها من الفن شيء أن أقامها من أراد بها العبادة لوجه الله وحده ؛ وهذه المنازل المتدرجة من شاطئ الماء إلى أعالى تلال الآستانة ؛ وهذه الصفحة ؛ صفحة الماء المتموج تحت ضياء الشمس الساطعة ؛ وهؤلاء الأتراك الذين يغدون ويروحون وكلهم فى زى واحد وهندام متسق – هذا كله وما وراء هذا من سائر ما فى الآستانة من جمال البسفور ، وحديث التاريخ ، وآثار النهضة ، مما شهدت عيناى ستة أيام تباعاً سيتدثر كله فى حجب الماضى وطيات الغيب ، ويظل منه عندى ذكرى وخبر . أيا صوفيا المسجد الذى كان كنيسة وما يزال كل ما فيه يحدث عن ماضيه ، وما يزال كل ما فيه من جمال وروعة بعمده الضخمة وزجاجه الملون السندسى ومنبره البديع وبسطه الثمينة ؛ والسليمانية المسجد الإسلامى البحت كله الرهبة والجلال ؛ وجامع السلطان أحمد ؛ وقصور (تب كابو) ويلدز وضلمه بخشه – هذا كله مما رأيت وما كنت أن أرى حتى أمس سيفرُّ منى ويغيب عنى إلى أجل لا أدرى من أمره شيئاً . وكل هذا كان محبباً إلىّ ؛ لأنه صورة حية لخيالات ذهنية امتلأ بها رأسى منذ زمان طويل . وهأنذا ما أكاد أشعر بها يعض حسى وبعض حياتى حتى أحسها تختفى آخذة معها بعض حسى وبعض حياتى ! ! ما أشد الإنسان صلابة وقسوة ! ينفصل كل يوم من حياته جزء يبتر منه بتراً ، وهو عن ذلك لاه وله أكثر الأمر باسمٌ ، لكن جمال الطبيعة فى هذا الموقع لا يسهل على النفس انفصاله منها ؛ ولذلك طال تحديقى من نافذة غرفتى إلى قرن الذهب وإلى مساجد الآستانة وبيعها الصاعدة من الماء حتى تلامس الأفق ، وحتى تكون فيه صورة لا تشبع عين من النظر إليها .

وداعاً للآستانة ولكل ما فيها إذن . وداعاً جميلاً لأيام قليلة كان فيها كل ما فى الآستانة طروباً باسماً ، وكان من لقيت من المصريين وغير المصريين بَشاً رقيقاً . وداعاً لهذا القسم من عمرى تحدَّر فى هاوية سحيقة لن يرى بعدها النور . ولنستقبل سفرنا راجين آملين .

ودهبنا إلى المرفأ ، واجترنا الجمرك بعد ما أعددنا لذلك عدتنا من الحصول على إجازة من البوليس بمغادرة الآستانة . فأنت لا تدخل الآستانة إلا بجواز . ويقال إنك لم تكن تستطيع أن تتحرك فى أنحائها منذ زمن غير بعيد إلا بجواز . ومن جديد راقب عمال الجمرك متاعنا ، وما أدرى ونحن نغادر بلادهم ما شأنهم به . ثم علونا سطح الباخرة التى تقوم بالسياحة بين الآستانة وقسطنزة . ولم يكن لنا والباخرة راسية فى الميناء أن نرى غير بناء الجمرك ، ولا جمال فيه ولا عزاء عن النظر إليه إلا لطف إخواننا الذين كلفوا أنفسهم مؤونة توديعنا .

وتناولنا طعام الغداء ولما تتحرك الباخرة . ثم أقلعت ، حتى إذا توسطت البسفور صفحة مصقولة تحت الشمس تطوقه من الجانبين مناظر صاغتها الطبيعة وحدها فى يوم من ستة أيام الخلق ، كنا لوداع عروس البسفور أكثر أسفاً ، لما فى هذا البوغاز من جمال ، بل لما فيه من عرائس الآستانة وأشقودرة عن جانبيه ، وجزائر الأمراء ناتئة فى مياهه وكل واحدة منها يتوسطها جبل نثرت على سفوحه المنازل تحدق إليها وتحدق إليك كأنما تدعوك إليها وهى مطلة على البحر من ناحية وعلى السفح من الأخرى . ومن ذا استطاع ألا يجيب دعوة جزائر الأمراء للتصعيد فيها حتى قمة جبليها ، ليحدق إلى البسفور وما حوله وليستمتع بهواء أنقى هواء وأحلاه ! . ثم ابتعدت السفينة رويداً رويداً مجاوزة ببك إلى ترابيا تتجلى عندها أنضر السفوح وأبهجها . ووقفت إلى جانب مكان الربان أرقب من خلال زجاج نوافذه كيف تتخطى السفينة البسفور إلى البحر الأسود ، وأنتظر أن أرى حصون البوغاز التى قص علىَّ إخوانى بالآستانة أنها معاقل تركيا ضد عدوان بواخر روسيا من البحر الأسود على الآستانة . والآن فها هى ذى الجبال تقترب وقد صرنا ولا ريب على قيد خطوة من هذا البحر الأسود ومن حصون البوغاز . لكن لا ! لقد نتأ أمام النظر جبل جديد يتصل بالجبلين ويقف فى طريق السفينة . أفتراها تتسرب هى الاخرى خلال الأنفاق تحت الجبال ؟ أدرت النظر فى كل جانب رجاء أن أتبين الفرجة التى تنفذ منها ، فارتد بصرى حائراً . عن اليمين فرجة أو شبه فرجة وعن الشمال مثلها . والباخرة متقدمة فى سيرها لا تتجه يمنة ولا يسرة ، كأنما تريد أن تتسلق سفوحه بين الأعشاب والأشجار . وظللنا على ذلك زمناً خلته طويلا . ثم تبينت الأعلام فى الماء هادية طريقنا إلى اليمين ، فاستدرنا فيه ، وإذا نحن ما نزال بين جبال خضراء السفوح فى شىء من ذبول

أوليات الخريف ، ثم إذا جبل يقطع علينا الطريق من جديد استدرنا عنده فتبدت منازل على السفـوح ، وتبدت حصون البوغاز ، وتبدى هناك عند مرمى النظر عباب البحر الأسود المترامى إلى ما وراء الأفق ، عن قريب ندخله ونجتازه إلى قسطنزة فنصلها فى الساعة الرابعة صباحاً .

وجلست مستدبراً البحر الأسود ، مستقبلا البوغاز الساحر ، ألقى عليه آخر النظرات . وأودعه راجيا فى الحياة يوم عودة إليه واجتياز إياه إلى حيث لا أدرى الآن . يا عجباً ! إن فى هذه البقعة من الأرض لجمالاً باهراً ، فما للإنسان الذى جعل جنات من سويسرا ومن السافوا ومن التيرول ومن غيرها من البقاع التى جادت عليها الطبيعة ببعض ما جادت به على البسفور من جمال ، قد ترك هذا البسفور فى روعة الوحشة الطبيعية ! أأولاء أناس وأهل البسفور غير هؤلاء الناس ؟ هل عجزت الإمبراطورية العثمانية القديمة كلها عن تجميل هذه البقعة الضيقة منها ولم تعجز عن أن تشيد فى الآستانة مساجد وقصوراً ؟ !ألا لعل تركيا الحاضرة على صغرها تستطيع بمعجزة كالمعجزة التى أظفرتها فى الحرب الأخيرة أن تقوم للبسفور بما عجز السلاطين الخلفاء عن القيام به .

وخطرت السفينة فوق موج البحر الأسود تعكس مياهه دكنة سمائه رغم الشمس البازغة ، وتوارت الشواطئ بحجاب الأفق ، وتعطى الناس على مقاعدهم اتقاء دوار بدأ يداعب بعض الرءوس ، وظل من لا يخافون الدوار يدورون فوق السفينة . ثم آن للناس أن يتناولوا طعام العشاء وقد اطمأنت صفحة الماء ، لكى يكون لهم متسع من الوقت يستريحون فيه إلى النوم ليقوموا فى الساعة الثالثة استعداداً للنزول .

وفى منتصف الساعة الرابعة تبدى فنار قسطنزة ، وبعد ذلك بقليل رسونا ومررنا بالجمرك وبمراقبة الجواز ، وفيهما بعض ما فى تركيا من دقة . ثم انطلق بنا القطار قبيل الساعة السادسة قاصداً بخارست ماراً فى طريقه بأرض زراعية مسطحة أشبه بأراضى مصر ، وفيها الذرة والغلال وغيرهما من المزروعات . لذلك لم يأخذ بالنظر خلال الطريق غير الجسور الكبيرة ، عبر القطار فوقها الدانوب ، وعبر بعض منخفضات فيها مياه لم أدر أراكدة أم جارية .

ونزلنا بخارست والصورة التى لدينا منها فاترة بعض الفتور . ولقد سمعت عنها غير مرة ما سمعته عن بروكسل وجنيف وبعض المدائن أنها باريس مصغرة . لكن إخواناً يقيمون بها ذكروا أن ليس فيها ما يقف النظر عنده . وقصدنا إلى فندق « أثينا بلاس » . ثم أخذنا تذاكرنا على الدانوب إلى بودابست ، وخرجنا إلى ظاهر المدينة فى طريق « كسلف » ، فبدا لنا منها

أول شبه بباريس . فهذه الطريق تشبه الشانزليزيه فى سعتها وفى الأشجار المغروسة خلالها والمنازل الرشيقة على جانبيها وقوس النصر فى آخرها . وبعد قوس النصر تستمر طويلاً بين المزارع كما يصل الشانزليزيه إلى غاب بولونيا . لكن « كسلف » من الشانزليزيه كالكارت بوستال من صورة بديعة كالجيوكندة أوأية صورة بديعة أخرى : فيها رسم الأصل ولكن ليس فيها شيء من حياته . وأين الطريق فى أية مدينة من مدائن العالم بحياة الشانزليزيه ! أين لطريق أن يبتدئ من اللوفر ومن حدائق التويلرى ومن ميدان الكونكورد لينتهى إلى قوس النصر ولترى على جانبيه « الجران باليه » و« البتى باليه » ، ولتطالع من خلال الطرق المتصلة به قبر نابليون فى الأنفاليد وليطالعك من خلاله برج إيفل ! لكن طريق كسلف رسم على صورة الشانزليزيه ، فجعل لبخارست الحق فى أن تكون باريس الصغرى .

وغربت الشمس وأضاءت الأنوار بالمدينة ، وسرت يهدينى صاحبى خلالها لأرى فيها من باريس شبهاً جديداً . سرنا قاصدين حدائق « ششمجيو » لنرى فيها بحيرة كبحيرة غاب بولونيا ومطعماً كمطاعمه ، فمررنا بطرق متسعة غاصة بالمارة وأكثرهم أوانس جعلن من وجوههن وأنفسهن متاعاً للناظرين . أليست هذه باريس ؟ والحوانيت تعرض المبيعات فى زجاجها المضيء كحوانيت باريس فى الشوارع الكبرى .

وهذه أيضاً فى بخارست اسمها الشوارع الكبرى ، ولها على شوارع باريس الكبرى امتياز ؛ فأنت تمر بها على قهوة « بكادلى » . واسم بكادلى معروف فى لندن غير معروف فى باريس . ثم تمر بعد ذلك بالطواحين الحمراء Moulins Ronges وبغير الطواحين الحمراء من أسماء ملاهى باريس التى أصبحت اليوم أسماء عالمية كأسماء عظماء الرجال . وحدائق « ششمجيو » تتوسط المدينة كحدائق « هيد بارك » بلندن ، وبها بحيرة صناعية تخطر فوقها زوارق صغيرة تمسك الأوانس أكثر الأمر بمجاديفها . والمطعم على حافة البحيرة أضاءت سماءه الأنوار المختلفة الألوان ، فطرحت على صفحة الماء الساجية بكساء الليل ملاعب نور تزيدها الزوارق والأوانس المجدفات نوراً ولعباً .

لهذا كله يسمون بخارست باريس الصغرى . . . وقد يكون فى هذا بعض العزاء لمن لم يعرف باريس . أما صاحبى الذى وصفها بأن ليس فيها ما يقف النظر عنده ، وأما أصحابى الآخرون الذين جعلوا صورتها فاترة فى نفسى ، فهؤلاء جميعاً لا يقنعون بباريس الصغرى ، ولا يقنعون بغير باريس الكبرى أو بما يدانيها من كبريات المدائن . وقد يكون لهم من ذلك عذر ؛ فمن عرف العالم صغر العالم فى عينه ، وصار لا يرضيه إلا خير ما فى العالم وأعظمه . كما أن من عرف الناس صغر شأن الناس عنده ، فأصبح لا يرى الخير منهم

إلا فى قليل . أما الأكثرون فيرضون من الحياة بكل بريق تجود به الحياة ، ويجدون فى كل باريس صغرى عزاء عن باريس الكبرى وغيرها من كبريات المدائن . وهؤلاء فى الحياة أوفر من السعادة حظاً وأعظم من الرضا نصيباً .

ولكن ، أشرقية بخارست أم غربية ؟ أم هى لا شرقية ولا غربية ؟ هى فى مظهرها أقرب إلى الغرب ، ولكنها تتصل بالشرق فى كثير ، وكأنها لا تزال متأثرة بحكم الترك الذى لم يصرفه الاستقلال عنها إلا من ستين سنة . وكما تحبو تركيا الآن نحو حضارة الغرب حبت رومانيا منذ استقلت نحو هذه الحضارة ، فنالت منها نصيباً ، وبقى لها من ماضيها نصيب .

فليس لأهلها من النشاط فى حركتهم مثل ما لأهل الغرب ، وإن كانوا أكثر من أهل الشرق نشاطاً . وما يزال فيها من تراث الشرق بقاء الأمية فى بعض أنحائها ، وبقاء البؤس المستسلم مستحوذاً على أطرافها . ثم إن الطبيعة لم تجد عليها بما يعوضها عن شرقيتها ويجعل المظهر الغربى ظاهراً فيها ظهوراً واضحاً .

ونحن نقصد الغرب نخلط به شرقيتنا . لذلك قصدنا غداة وصولنا بخارست إلى مصيف « سنايا » المرتفع بين الجبال والذى يبعد مسيرة أربع ساعات فى القطار عن عاصمة رومانيا . قصدناها لنقيم بها حتى صباح الأثنين ، ولنعود منها فنقضى ببخارست ساعات ، ثم نغادرها إلى جيورجيو ، ونأخذ الباخرة من مرسى رمضان على الدانوب كى تقلنا إلى بودابست .

وسار بنا القطار الذاهب إلى « سنايا » بين سهول ومزارع حتى وصلنا بلوشتى ، ثم عاد أدراجه زمناً ليعدل عن طريق سنايا . ها نحن أولاء قد انتقلنا حقاً إلى طبيعة غير طبيعة بلادنا . طبيعة يألفها من زار فرنسا وإنجلترا أو سويسرا ومن اخترق خلال الألب جناتها اليانعة . ها هى ذى الجبال تعلو وتنشق أثناءها مسارب الماء المتدفق من الثلوج المتراكمة فوق قللها لتنحدر فى أخاديد إلى الغوطات والأودية ، ولتنبت أحراش الأشجار المختلفة ما تزال زاهية برغم اقتراب الخريف . وها هو ذا القطار يشق الماء والخضرة وتحدق إليه وجوه حسان استقلت القطار إلى « سنايا » . وها هو ذا الجو بدأ يتغير . بدأ ذلك القيظ الذى ضاق به ذرعنا فى بخارست تنجلى غمته لينعش هواء الجبل الجميل النفوس والقلوب . ثم هذه سنايا تقترب ، وهذا القطار يقف عندها فننزل منه لنتسلق أول خروجنا من باب المحطة سفوحاً ودرجاً وسفوحاً أخرى ، كى نصل إلى فندق سنايا بلاس ، فنطل من نوافذه على جبال دائمة الخضرة متجددة الجمال تحت ضياء الشمس كلما أضاءت ، وتحت الغمام كلما حجب الشمس الغمام .

« سنايا » مصيف الأسرة الملكية ، وبها قصران يتحدث عنهما المتحدثون ، فلا بد لنا

من زيارتهما . وإذْ كان الوقت مساء فلتكن الزيارة صباح غد ، ولنقض سويعات هذا النهار ومساءه فى الحديقة الجميلة أمامنا وفى طرق سنايا المشقوقة فوق السفوح . ما أكثر زوار سنايا ! وما أشدهم حرصاً على المتاع بهوائها الطلق وبمناظرها الجميلة ! لا ريب أنه سيقصد كثيرون منهم قصر الملك صباح غد مثلنا . ولا ريب أنهم سيقضون أحدهم فى متاع جميل بعطلة الأسبوع والهواء الجميل .

وقمنا فى الصباح قاصدين القصر ، فاجتزنا فى الطريق إليه كنيسة القرية متقنة البناء ، فى سقفها وزجاجها ومنارات أجراسها الرفيعة المذهبة شىء من الفن غير قليل ، وفيها من عباد الله الذين جاءوا يرتجون عن آلام العيش سلوة ؛ وفى الحياة هذا الخيال الذى يسعى الكل وراءه ويسميه السعادة خلق كثير . دخلناها هنيهة ثم صعدنا فوق الجبال نطلب القمة ، وهبطنا من جديد إلى الطريق المؤدى إلى قصر الملك ، وسرنا فيه مع السائرين ، وتمر بنا الأتوبيلات قاصدة إليه مسرعة . فلما تكشفت للنظر أعاليه كنا أمام منظر من أبهى مناظر الطبيعة نظمتها يد الإنسان ونسقتها ، وكنا أمام قصر تضوع عمارته وحدائقه وفساقيه وتماثيله ومياهه فناً جميلا .

القصر على ربوة عالية تحيط به حدائق نسقت فيها الأزهار مختلفة الألوان متجاورتها ، حتى لكأنها ليست ألوانها ، وإنما صبغها بها نقاش على ما يريد فن الألوان ويهوى . وهى مع ذلك أزهار طبيعية ذات شذا وذات جمال . وفساقى المياه تتخلل الزهر وتقوم فوقها تماثيل تحكى صور الحياة فى مختلف ألوان الحياة . والقصر الفخم مشيد خلال ذلك كله لا تدرى أكبير هو أم صغير ؛ لأنك فى شغل بدقائق فن العمارة والنحت والتمثيل فيه عن تقدير مساحته . فأبوابه وجدرانه وأبراجه ومناراته فن كلها لذاتها ، وفن بالنقوش والتماثيل المتصلة بها . كل قطعة فيه تحفة . وهذه التحف لا يزال داخلها مصوناً لم يفتضه الجمهور كما افتض يلدز وفرساى وفتنبلو وغيرها ؛ لأن رومانيا ما تزال ملكية ، وما يزال لها ملك وإن كان طفلا . ولكن بحسب الجمهور ظاهر القصر وحدائقه وتماثيله ؛ ففيها من روعة الفن وجماله ما يأخذك عن نفسك ساعات وأياماً .

فى هذا القصر مات الملك فرديناند . وفى هذا القصر تقيم أحياناً الملكة الكاتبة المحبة للجمال فى كل شىء وفى الإنسان مع كل شىء ، ولهذا يبقى القصر قدساً لا تطؤه أقدام الجماهير ، وإن كان قد بنى بأموال الجماهير وبالعرق الذى يتصبب من جبينهم وبالدماء التى تجرى فى عروقهم .

وقضينا بقية النهار فى إعجاب بالقصر وفى جولات فى أنحاء سنايا ، حتى إذا أقبل الليل أقبل البرد معه ، فأوى الناس إلى الفنادق وما بين الجدران . وفى الساعة السابعة من صباح الغد عدنا بالقطار إلى بخارست فبلغناها قبيل الظهر وطفنا بأنحائها . وفى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ركبنا القطار إلى جورجيو فرمضان ، واستقللنا الباخرة قاصدين بودابست .

ومع أنا لم نر إلا قليلا من هذه التى يسميها أهلها باريس الصغيرة فقد عرفت أثناء إقامتى القصيرة بها شيئاً عن رومانيا غير قليل ، وقد غادرتها آسفاً . وكيف لا يأسف الإنسان لمغادرة بلد عرف فيه إنسانا ظريفا يوحى إليك كل معانى المحبة والصداقة لأول ما تعرفه ، ولا يتركك إلا بعد أن يترك فى نفسك أجمل أثر من رقته ووداعته وجميل عشرته ! .

شيء عن رومانيا

كان مقامنا فى رومانيا قصيراً ؛ فلم نمكث فى بخارست أكثر من ثلاثين ساعة . وقضينا فى الذهاب إلى سنايا وفى المقام بها وفى العودة منها وفى السفر إلى مرفأ رمضان ، لنركب الدانوب إلى بودابست ، ثمانى وأربعين ساعة . لكنى صادفنى من الحظ فى هذه الفترة القصيرة أن قابلت رجال مفوضية مصر فى بخارست ، واتصلت من طريقهم بأحد كبار الصحفيين ، وعرفت بسببهم شيئا عن رومانيا قد يعنينى الوقوف عليه للإحاطة ببعض شأن هذه البلاد ، ولأنه مقدمة صالحة لكثير من الأفكار والخواطر التى أثارها عندى ما رأيت حين نزلت بودابست وفينا ، وحين تبينت فيهما وفى براج بعض الآثار السياسية والاقتصادية للحرب الكبرى وللصلح العجيب الذى نشأ عنها .

أول ما يشعر به من ينزل رومانيا ويتصل بأحد الرومانيين ، هذا الزهو بما كسبت رومانيا فى صلح سنة ١٩١٩ والحيرة فى السبيل إلى الاستفادة من هذا الكسب . فبخارست كانت وما تزال بلداً بلقانياً . لكنها كانت عاصمة سبعة ملايين ، فأصبحت عاصمة سبعة عشر مليوناً بما أضافت إليها معاهدات الصلح من مغانم الحرب التى حكم الحلفاء بأنها من حقهم وحق من انضم إليهم . وكيف السبيل إلى هذه الاستفادة ، وكيف يمكن أن تكون بخارست عاصمة كبيرة ؟ فى هذا يفكر أهل رومانيا وساستها ، وإن كانوا فى شغل بمسائل شخصية شتى تجعل تفكيرهم هذا بطىء النتائج .

والحق أن أمام الساسة الرومانيين مشاغل كثيرة تجعل جهادهم ، ليقيموا دولة واحدة من رومانيا القديمة ومن الأجزاء التى ضمت إليها من النمسا ومن المجر ومن بعض ولايات الجنوب ، جهاداً عسيراً شاقًّا . وليست تقف مشقته عندما اضطرب ويضطرب به بلاط رومانيا من أهواء وميول ، لجلالة الملكة مارى الكاتبة المقتدرة منها حظ غير قليل ، بل إن بين ولايات رومانيا القديمة التى لم تتحرر من الحكم التركى إلا منذ ستين سنة ، وهذه الولايات الجديدة التى كانت مع المجر ومع النمسا ، بوناً شاسعاً فى الحضارة وفى الثقافة وفى نظام الحياة . سكان هذه الولايات الجديدة لا يكاد يكون فيهم أميون ، وسكان رومانيا القديمة أكثرهم أميون . والمتعلمون من أهل هذه الولايات الجديدة لهم ثقافة قديمة كانوا يشيدون عليها مع أهل

النمسا وأهل المجر ، وليس للمتعلمين من أهل رومانيا القديمة مثل هذه الثقافة . ثم إن أهل هذه الولايات الجديدة ما يزال لهم إلى الممالك التى انسلخوا عنها حنين وما يزال فى نفوسهم عليها عطف ، فى حين أن أهل رومانيا القديمة يعتبرون النمسا ويعتبرون ألمانيا دولا أعداء ، ويدينون لفرنسا وللثقافة الفرنسية بإيمان لا يدين به من أخضعهم الصلح لحكمهم .

نشأ عن هذا الاختلاف بين العنصرين شقاق فى شؤون كثيرة هو بعض هذه المتاعب التى تجدها رومانيا فى إيجاد الوحدة بين أجزاء رومانيا الكبرى . وأول مظاهر هذا الشقاق ما تعلق بحكم البلاد . صحيح أن لرومانيا برلماناً مكوناً من مجلسين ، على خلاف غيرها من دول البلقان التى اختارت نظام المجلس الواحد . وصحيح أن الولايات التى ضمت بعد الصلح لأهلها حق الانتخاب كأهل رومانيا القديمة . ولكن أهل رومانيا القديمة ينادون بأنهم أحق من أهل الولايات الجديدة بالحكم ، وأن أهل هذه الولايات لا حق لهم فى التذمر من هذا الحق ؛ فهم الذين ضحوا فى الحرب ، وهم الذين كان لهم إلى جانب الحلفاء النصر والظفر ؛ والحكم حق للغالب لا للمغلوب . ثم إن هؤلاء الذين كانوا مع الولايات المعادية لرومانيا فى الحرب لما تبلغ نفوسهم من الصفو ما يجعل منهم رومانيين بالعاطفة مثلما هم رومانيون بالقانون . والحكم إن لم يقترن بالعاطفة الوطنية كان وبالا على البلاد التى يسود فيها . فإلى أن تندثر فى النفوس عواطف المنافسة والبغضاء ، وإلى أن تصبح رومانيا الكبرى وطناً للكل متأصلا الإحساس به فى النفوس ، يكون من الخطر على رومانيا أن يتولى الحكم فيها غير أهلها الأقدمين .

فأما أهل الولايات الجديدة فلا ينكرون على أهل رومانيا القديمة حقهم فى ولاية الحكم ، ولكنهم ينكرون أن يكون هذا الحق مقصوراً عليهم ، وألا يمتد إليهم هم أهل الولايات الجديدة . ولهم حجتهم ؛ فهم قد أصبحوا رومانيين بالقانون ، فيجب أن يكون لهم ما لكل رومانى من حق لا فرق بين قديم وجديد . وهم أرقى عقلية وثقافة وأكثر علماً وبصراً بأمور الحكم ؛ فاشتراكهم فى تولى شؤون الدولة يصلح من هذه الشؤون . ثم إن العاطفة الوطنية لا تتولد فى نفوسهم وفى نفوس أبنائهم بهذا الحرمان الذى يراد قسرهم عليه ، وإنما تتولد وتنمو بازدياد المصالح المشتركة بينهم وبين بنى وطنهم أهل رومانيا القديمة . ولا يتم هذا الاشتراك مع إقصائهم عن الحكم ، ولا تنمو العاطفة الوطنية فى نفس من يحس بظلم كان لا يحس بمثله قبل أن ينضم إلى رومانيا . والعواطف يرثها الأبناء عن الآباء . وما دام أهل الولايات الجديدة أكثر عدداً ، وسيكون أبناؤهم كذلك ، فسيكون لهؤلاء الأبناء لا شك نصيب فى الحكم ، وسيكون هذا

النصيب مشوباً فى نفوسهم بعاطفة ليست هى عاطفة الامتزاج التام مع مواطنيهم أهل رومانيا القديمة .

إلى جانب هذه المشكلة القائمة بين الأقدمين من أهل رومانيا وبين الولايات الجديدة ، مشكلة أخرى يتشعب حولها الرأى . تلك أن حالة رومانيا الاقتصادية سيئة كحالة الدول التى اشتركت فى الحرب سواء منها المنتصر والهزيم . ولرومانيا فى الولايات الجديدة موارد ثروة لا نهاية لها ولكنها تحتاج إلى الاستغلال . وإذا كانت منابع البترول تستغل اليوم فيها استغلالا صالحاً فإن كثيراً جداً من هذه المنابع لا يزال بكراً لما يفترع . فأما الغابات التى تجعل رومانيا من أكثر بلاد العالم ثروة فى الأخشاب ، فما يزال بعضها تأوى إليه الحيوانات الضارية ؛ لأن يد الإنسان لم تعمل فيها عملا . وكالبترول والأخشاب موارد للثروة كثيرة تجعل من رومانيا ميداناً اقتصادياً بالغاً فى الغنى لا عيب فيه إلا عجز صاحبه عن استغلاله . وكثيرون من الكتّاب وأهل الرأى فى رومانيا ينادون بضرورة الاستعانة برأس المال الأجنبى عن طريق القرض ، لاستخراج ما فى باطن الأرض من معادن ، ولإدخال أخشاب الغابات ميدان الصناعة . وأصحاب هذا الرأى لا يريدون أن يكون لليد الأجنبية فى الاستغلال مدخل ، فهم يعترضون أشد الاعتراض على منح امتيازات للشركات الأجنبية ، كالامتيازات التى منحت فى الماضى لشركات إنجليزية وغير إنجليزية فى استنباط البترول من الأرض . لكنهم يرون أن لا سبيل غير الاقتراض وغير الاستفادة بالغنى الأجنبى . على أن يكون عاملاً لا صاحب مال ، إلى أن تدخل هذه الأموال الطائلة المهملة فى عداد المقومات .

غير أن الحكومة تقف فى وجه هذا الرأى وترى الاكتفاء برءوس الأموال القومية ، حتى لا يتسرب لحكومة أجنبية خيال بإمكان الاستفادة اقتصادياً أو سياسياً من رومانيا بسبب مايكون لأهلها من رءوس أموال فى القروض الرومانية . ولهذه الحجة ظاهر من الوجاهة يدفعه معارضو الحكومة بأن رءوس الأموال لم تعط فى أمة مستقلة حقاً لأمة أخرى تتدخل بموجبه فى شئونها ، وبأن الحكومة إنما تذهب هذا المذهب لأن المصارف ورءوس الأموال التى توظف فى موارد ثروة رومانيا ملك لأنصار الحكومة الذين يخشون إن دخلت أموال جديدة فى ميدان الاستغلال أن تقل أرباحهم وهم عليها أشد مما هم على المصلحة العامة حرصاً .

ومشكلة ثالثة تجعل جهاد الرومانيين فى سبيل وحدة رومانيا الكبرى عسيراً وتجعل نتائجه بعيدة ، تلك ما حدث فى هذه البلاد أخيراً من توزيع الثروة العقارية توزيعاً قضى على كل الملاك قضاء مبرماً . فمجاورة رومانيا لروسيا جعلتها مستعدة لعدوى البلشفية أكبر

استعداد ، وقد بلغ أمر ذلك فى زمن من الأزمان أن تعرض العرش للانهيار ، وأن تعرضت البلاد للثورة . فلم تجد الحكومة ولم يجد الملك يومئذ وسيلة لتفادى ما رأوه كارثة مقبلة إلا أن سنُّوا قانوناً وزعت بموجبه أملاك كبار المزارعين على صغارهم وعلى الفلاحين بثمن صورى ، فأصبح الكل ملاكاً . ودافع الكل عن الملكية ، واتقت رومانيا البلشفية ؛ إذ تلهّى كل مزارع فقير كان مستعداً للثورة بما ناله عن طريق القانون بعد أن كان له أمل فى نيل مثله من طريق الثورة .

وقد أصابت نتائج هذا القانون أهل الولايات الجديدة كما أصابت رومانيا القديمة . بل إن بعض كبار الملاك فى الولايات الجديدة ممن احتفظوا بجنسيتهم القديمة ليضجون اليوم بالشكوى ويرفعون عقائرهم بأن هذا التشريع لا يجوز أن يسرى عليهم . وكبار الملاك من أهل رومانيا القديمة ومن الولايات الجديدة متذمرون بطبيعة الحال من قانون أنتج لهم أن أصبحوا فقراء مسودين بعد أن كانوا أغنياء سادة . وليس ينتظر منهم فى مثل هذا الظرف أن يكونوا فى الجهاد الجديد لوحدة رومانيا الكبرى أعواناً متحمسين . فإذا ذكرنا أنهم أكثر الطوائف ثقافة وأرقاها إدراكاً ، بسبب مركزهم الإجتماعى القديم ، بدا لنا مقدار عظم هذه المشكلة مضافة إلى المشاكل الأخرى التى تقف فى سبيل الجهاد لتنظيم رومانيا الكبرى .

على أن هذه ليست كل المصاعب التى تقف فى سبيل جهود رجال رومانيا . فثم مصاعب غيرها ليست أقل منها دقة وإثارة لعناية الجمهور والساسة جميعاً . وأولى هذه المصاعب مسألة العرش والجالس عليه . فمنذ تنزل البرنس كارول عن ولاية عهد أبيه مفضلاً أن يتبع الغانية التى أحبها وأحبته ليطوفا أنحاء الأرض وليقيما كلما حلت لهما الإقامة فى أم المدن باريس ، ومنذ آلت ولاية العهد إلى البرنس الطفل ميخائيل الجالس اليوم على عرش جده — من ذلك الحين تكوّن فى رومانيا حزب يطالب ببقاء العرش لكارول ، وكان هذا الحزب صغيراً بادئ الأمر . وكانت الملكة مارى أم كارول من ألد خصوم أعوانه ، فلما توفى الملك فرديناند وأقسم نواب الأمة يمين الولاء لميخائيل ، بدا حزب كارول يزداد ويقوى . ومع أن المسيو برتيانو رئيس الوزارة الرومانية الحاضرة وأشد أنصار سياسة الملكة مارى أيداً وقوة كان فى صف الملك الطفل بادئ الأمر ، فهو قد بدأ يشعر بالحركة لكارول تقوى وتنتشر فى حزب الفلاحين بنوع خاص . وهو قد بدأ لذلك يفكر فى التوفيق بين الملكة وابنها ، وفى دعوة كارول إلى عرش أبيه بشروط اتصل بى أن المفاوضة دائرة بشأنها بين رئيس وزارة بخارست وبين البرنس وأعوانه فى باريس . غير أن ذلك ليس معناه الثقة

بإمكان التفاهم ؛ فهذه المفاوضات ما تزال سرية صرفة . ثم إن البرنس كارول ما يزال له خصوم فى رومانيا ، وهم إن قل عددهم فلهم من تأييد الملكة الكاتبة عـــون وقوة لا يستهان بهمـــا .

ومشكلة غير كل ما تقدم تعوق الجهود التى تبذل لتنظيم رومانيا الكبرى . تلك أن خصوم الوزارة الحاضرة يرون أنها تعتمد فى البرلمان على كثرة زائفة لا تمثل رأى البلاد . فقد استعملت فى الانتخابات الأخيرة ألوان من العسف والاضطهاد ، بل من الغش ومن التزوير . مما تحدثت به الصحف وأكدته فى حينه دون أن تجرؤ الحكومة على محاكمة المسئولين فيها . وإنما لجأت الحكومة إلى هذه الوسائل فى الانتخابات بعد أن أخفقت مساع كان يبذلها المقربون لقلب جلالة الملكة فى سبيل التوفيق بين الأحزاب المختلفة على قاعدة تأييد سياستها . وحكومة هذا مبلغ الثقة بها لا تستطيع أن تفرغ للإصلاح ، ولما تقتضيه مشكلة تنظيم رومانيا الكبرى من جهود جسام .

وهذه المشاكل التى استطعت أن أقف عليها هى قليل من كثير مما تضطرب به سياسة رومانيا ، وبسببها تعددت الأحزاب فى هذه المملكة إلى حد لم يعرف حتى فى فرنسا . ويتصل رجال هذه الأحزاب بزعمائهم أكثر من اتصالهم بمبادئهم ؛ لأن لكل مطامع ، وكل يتعجل فرصة تحقيقها . والحرب بين هذه الأحزاب حرب عنيفة لا هوادة فيها ولا رحمة ؛ ووسائلها هى وسائل كل حرب حزبية . الخطابة والصحافة . وشدة هذه الحرب واشتغال كل حزب بتأييد رأيه للوصول إلى الحكم أكثر مما يريد به الوصول إلى نتيجة سريعة فى تنظيم المملكة الكبيرة التى آلت للرومانيين بعد الحرب يجعل هذه الموارد الاقتصادية العظيمة التى كانت لرومانيا من قبل والتى ضمت إليها مع الولايات الجديدة ، معطلة دون استغلال على الطريقة التى تقضى بها الحضارة الحديثة .

* * *

إلى متى يظل هذا الشلل المقعد لرومانيا عن النهضة السريعة ؟ هذا ما يتعذر التكهن به . ولعل قياسه إلى تقدم الصحافة ونهضتها يشوبه شىء من المجازفة . فالصحافة فى رومانيا تقدمت فى الظروف الأخيرة ، وتتقدم الآن تقدماً سريعاً ؛ لأنها أصبحت أداة قوية فى الحياة العامة ، أصبحت سلطة رابعة ، بل صاحبة جلالة . أصبحت كذلك بطبيعة الظروف وبطبيعة هذه المشاكل التى أشرنا إليها والتى جعلت من الصحافة قوة كقوة الجيش فى تأييد حكومة أو مناهضتها . وليس لغير الصحافة من مرافق اننا كهذه الظروف التى دفعت بالصحافة

إلى الأمام . على أن تقدم الصحافة تقدماً يشعر الإنسان بأنه أكيد ثابت ، يبعث إلى النفوس الاعتقاد بأن الصحافة ستكون أداة نهضة لسائر المرافق ، وبأن هذا التشعب فى الحزبية وفى المصالح سينتهى فى زمن غير بعيد إلى تغلب بعض الآراء وبعض المصالح تغلباً صحيحاً سببه الاقتناع والإيمان القائمان على تقدير سليم ، فنهضة المرافق كلها نهضة أكيدة ثابتة كنهضة الصحافة نفسها .

والحق أنى رأيت من نهضة الصحافة ومن أفراد هذه النهضة فى بخارست ما أدهشنى ؛ فقد زرت إدارة جريدتين ، تصدر إحداهما فى الصباح جريدة إخبارية ، وتصدر الثانية فى المساء حزبية مؤيدة لرأى المعارضين للحكومة . واسم الأولى « الصباح » واسم الثانية « الحقيقة » ، وكلتاهما تقوم بأمرها إدارة واحدة وتحرير متصل ، وإن كان لكل منهما نظامه الخاص وحجمه ومطابعه وورقه . وكان أول ما استوقف نظرى انتشار كلتا الجريدتين فى دولة لا يزيد سكانها عن سكان مصر إلا قليلاً . فكل منهما تطبع مائة وأربعين ألف نسخة ، وتطبعها باللغة الرومانية التى لا تقرأ إلا فى رومانيا . ولم تنتشر هاتان الصحيفتان ولا غيرهما من صحف رومانيا هذا الانتشار إلا بعد الحرب وبعد انضمام الولايات المتعلمة من المجر ومن النمسا إلى رومانيا .

ولذلك بدأ أرباب هذه الصحف يعنون بأمرها عناية كبرى . أليس انتشارها يزيد فى إيرادها ! فإذا أصلحت إحداها شيئاً من أمرها سبقت غيرها . فلتتسابق جميعاً فى مضمار الإصلاح ، ولتقم جميعاً بالنهضة الصحفية ، وهى تقوم بهذه النهضة مطمئنة واثقة . رأيت فى إدارة هاتين الصحيفتين – الصباح والحقيقة – أحدث آلات الطباعة وأسرعها . ورأيت أصحاب الجريدتين قد وضعوا برنامجاً لإصلاحهما كى تقفا إلى جانب أحسن الصحف فى أكثر الأمم تمدناً ، وحددوا لتنفيذه عشر سنوات مضى منها خمس . من هذا الإصلاح أن أضافوا إلى دار الجريدتين داراً أخرى ، وجعلوا من الدارين عمارة شاهقة تدور فى طبقاتها جميعاً فلا ترى إلا معدات الطباعة والتصوير ، خلا غرف الأخبار والتحرير . وترى من هذه المعدات جديداً جىء به لزيادة الإتقان والدقة . ولو أن القارئ كان صحفياً متصلاً بطباعة الصحف لقصصت عليه من أمر ذلك الإصلاح فى فن الطباعة ما يشركه معى فى الدهشة والإعجاب .

وليست تقف إدارة الصباح والحقيقة عند إصدار الجريدتين . يتولى رئيس تحريرها المستر بتسارى بمعونة زملائه إصدار عدة نشرات أخرى ، بعضها للأطفال ، وبعضها لسواد

الجمهور ، وبعضها للخاصة ، يقرب لكل طائفة من هذه الطوائف أسباب النهضة العالمية بالطريقة التي تقربها إلى إدراكها وإلى سلامة حكمها . وتلك أسباب جديدة تتعجل نهضة رومانيا برغم الحوائل والمشاكل السياسية التي أوردت . ولا ريب في أن لغير هاتين الصحيفتين من الجهد المحمود مثل ما لهما .

* * *

على أن الجهد للنهضة العامة يجب أن يكون عنيفاً ، فإن في بعض المرافق ركوداً يقابل هذا التقدم في أمر الصحافة أو يزيد عليه . وإذا كان ما قصصت من أمر الغابات والمناجم وآبار البترول إنما وقفت عليه من طريق الرواية والاطلاع ، فإن ما رأيت في المزارع أثناء سياحتي من قسطنزة إلى بخارست ، برغم خصب أرض رومانيا خصباً عجيباً ، هو بعض مظاهر هذا الركود . ومظهر آخر هو السكة الحديدية ، فعربات الدرجة الأولى في رومانيا دون عربات الدرجة الثانية في مصر . ركبنا القطار من بخارست إلى جيورجيو قاصدين مرفأ رمضان لنأخذ الباخرة إلى بودابست . والقطار يقوم الساعة السادسة و يصل الساعة التاسعة مساء . دع عنك فرش الديوان وعدم العناية به ، ويكفيك معي أن تنظر إلى هذا المصباح الذي يقال إنه يضيئه . مصباح ضئيل يضاء بالزيت ولا يكاد يضيء . كنا ثلاثة في الديوان لا يرى واحد منا وجه صاحبه ، ولا يتبين من كل شخصه إلا شبحاً يتحرك أو يسكن . والمحطات تضيئها مصابيح البترول من طراز نمرة ٥ الذي بطل استعماله بمصر أو كاد حتى في القرى والأرياف . والقطار يقطع هذه المسافة التي لا تزيد على ستين كيلومتراً في أكثر من ثلاث ساعات . هذا مع أن الطريق من بخارست إلى جيورجيو ومرفئها من الطرق التي تصل بين رومانيا وغيرها من دول البلقان .

وما كان أسعدنا بالخلاص من هذا القطار وبالنزول إلى السفينة النهرية (ساترنس) التي تقلنا إلى بودابست . وكم كنا نود أن ننتقل إلى أوربا التي نعرف بعد أسبوعين من مغادرتنا مصر . لكنا وجدنا عقبة أخيرة . تلك هي جمرك الخروج من رومانيا . نعم ! جمرك الخروج ! ! وكان أثقل من جمرك الخروج من تركيا . فقد سألنا عماله عن النقود التي معنا . ولما أخبرناهم أنا لم يبق معنا من النقود الرومانية إلا القليل لم يكفهم هذا ، بل سألوا عن غير النقود الرومانية واضطررت أن أبرز لهم تذكرة شخصيتي بوصفي رئيس تحرير السياسة ليعفوني من أسئلتهم الكثيرة ، وليعتذر أحدهم بأن قوانين الدولة تقضي بألا يخرج منها نقد بغير إذن من وزارة المالية ، وبأنه تجاوز عن عدم حصولي على هذا الإذن لوجود

موظف المالية إلى جانبه ولتسامحه . وشكرت ، ونزلنا قاصدين السفينة معتقدين أنا انتهينا ، فإذا بنا يجب أن ننتظر حتى نمر أمام عامل مراقبة الجوازات . وانتظرنا ثم مررنا ، وأقلعت بنا الباخرة وأنا أقول فى نفسى : أو ليس خيراً لهؤلاء الناس أن يحسنوا معاملة الأجانب الذين يزورون بلادهم ساعة مغادرتهم إياها !

ثم صرفنى عن التفكير فى رومانيا وفى جمركها هذا البدر المكتمل تكبد السماء وألقى على موج ماء الدانوب كساء من لجين . وقديماً كان البدر لى صديقاً ، وكان لى عن كثير من مشاغل الحياة خير عزاء .

فى بودابست

بعد أربعة أيام على الدانوب

لما اعتزمت احتياز أوربا عن طريق الآستانة فروما فالمجر والنمسا ، روى لى صديق عن أحد أصحابه ركب قطار إكسبريس الشرق من الآستانة إلى باريس ، فظل يشعر بأنه لما يصل أوربا ، حتى إذا اجتاز القطار البلقان إذا هذا القطار عينه قد صار أنظف مما كان ، لأن الوسط الذى أحاط به خلع عليه من معانى البهجة ما نبه النفس إلى جمال فيه لم تكن لتعنى به فى غير وسط أوربا الراقى . ولست أستطيع أن أقول ما قاله صاحب صديقى ؛ فإننى لم أركب إكسبريس الشرق ، وإنما ركبت السفينة النهرية على الدانوب وأشهد لقد شعرت ساعة نزلنا إليها فى مرفأ جيورجيو بعبء ينزاح عن عاتقى ، وبغبطة تشيع فى كل نفسى . ألم نقطع فى القطار من بخارست إلى السفينة ثلاث ساعات لم نر فيها ضياء الكهرباء ولم نتبين فيها مظهراً للحضارة ؟ ألم نجتز جمرك المرفأ بعد عناء أى عناء ؟ .

وها نحن أولاء تحيط بنا الأنوار من كل جانب . وهذا البدر يعين الكهرباء ويمد على صفحة الماء من ضيائه ما يذيب فيه فضة ونوراً . لكن هذا الإحساس بالطمأنينة لم يمازجه ما كنت أرجو من إعجاب بشواطئ الدانوب . فقد ظللنا بين رومانيا من جانب ، وبلغاريا ويوجوسلافيا من الجانب الآخر وليلتين لا نرى على الشاطئ إلا مزارع لا يحدها سوى الأفق ، ولا يحدث شيء مما عليها عن جمال . وكادت النفس تمل هذا المنظر المتشابه الذى لا يبعث إليها بجديد لولا أن أسعدتنا جبال « بوابات الحديد » بإحساس جديد . ما أشبه هذه الجبال بجبال البسفور ! وما أشبه الدانوب بينها بالبوغاز هناك ! ننظر فإذا الجبال عن أيمان الركب وشمائلهم وأمامهم ومن خلفهم ، وإذا الدانوب بحيرة ضيقة تحصرها السفوح القاسية القليلة الشجر والخضرة ، ثم إذا السفينة كأنها وسط هذه البحيرة حيرى وقف ربانها حركتها ومال بها إلى أحد الشاطئين حتى يتميز الطريق . وما هى إلا سويعة حتى تدور السفينة وتتقدم ، وإذا هى من جديد تحصرها وسط بحيرة ضيقة جبال تسد عليها الجهات الأربع . وعلى سفوح هذه الجبال ضياع منتثرة ، وقرى صغيرة ، وعليها طرق تمر من فوقها

العربات والدواب والناس ، ولكنها خالية أكثر الوقت من كل مار . وركب السفينة فرحون بهذا المنظر الذى يحدث لهم فى كل آن جديداً يبعث فى نفوسهم شوقاً لجديد غيره ، ويذرها حية متجددة لا يتطرق إليها السأم ولا الملال ولا شىء مما إليهما من علائم الجمود والموت .

لست أدرى أغلوت فى نسبة هذا الإحساس إلى ركب السفينة . لكن ذلك هو ما بدا لى منهم ، أو هو ما لاحظت منهم ، وهو إحساسى أنا بأن جمال الحياة إنما هو تجديد مظاهر الحياة . فجمال سكينة الخلد يبهر ولا يسحر ، وهو أثر نرتجيه بعد الحياة ، وإن أعجبنا أن نتخيل صورة جماله قبل بلوغه . ولعل شعورى هذا هو الذى يجعل الجبل أحب إلىَّ من البحر فإذا كان فى البحر وموجه وزوابعه وعواصفه من التجدد ما يجعل راكبه دائم اليقظة ، فإن البحر ما صفا متشابه . وهو إن ابتعث الخيال إلى تصوير ما وراء الأفق من غيب عجيب ، فإنه لا يحرك المشاعر فى كل لحظة بجديد . فأما الجبل فمأوى المباغتات فى كل خطوة من خطواته . انظر إلى هذا السحاب المتراكم فوق الأرض يحجب الشمس ويحيل النهار ليلا ، والناس فى كل لحظة يتوقعون الودق يخرج من خلاله ينهمر هتوناً ! هأنتذا تصعد الجبل فتخترق هذا السحاب فتعلو فوقه فتراه بين سفوح الجبل لججاً من دخان ، وترى الثلوج على قيد النظر منك . وحذار من الثلج ففيه فرجات للأقدام فيها مزالق . بل مالنا ولهذه المراقى العنيفة الرفيعة فى الجبال نلتمس عندها دوام الجدة ؟ ! إن فى أقل الجبال ارتفاعاً مفاجآت تتكرر ولا يأمنها أشد الناس بالجبل معرفة . وفى المفاجآت جمال وحياة . فإن أنت لم تكلف نفسك مؤونة العرض لها واكتفيت من الجبل بصخرة تجلس فوقها ، رأيت حولك من تعدد مناظر الجبل ما يقل مثيله فى البحر ، مع ما للبحر من هيبة وجلال .

وانحدرت الشمس وراء جبال أبواب الحديد ، وانتشرت الظلمة فى السماء رويداً حتى اكتسى بها كل الوجود . ثم أصبحنا فإذا نحن فوق السفينة على الماء تحيط بشاطئيه سهول لا يقف النظر فيها سوى الأفق . هنالك بدأ الملال يعاودنا ؛ ملال لم أجد سبيلاً إلى التغلب عليه إلا أن بدأت أكتب الرسائل الأولى من هذه السلسلة الثانية . فلما كنا عصر الجمعة تبددت على الدانوب بشائر بودابست . تبدت جسور ، تتلوها جسور ، وبدت على قيد النظر جبال ومبان شاهقة . إذن فقدنجونا من الملال وآن لنا أن ننزل منازل الحضارة . وأنستنا النجاة من الملال سخطنا على من أشار علينا بسياحة يمل الإنسان فيها الطمأنينة وتجهده أثناءها الراحة ، حتى ليود لو لم يكن فى الحياة راحة ولا طمأنينة .

ونزلنا بودابست . وقصدنا فندق سان جلير . وللفنادق فى المدن أثر فى النفس كبير .

هى التى تدفع إليك بالفكرة الأولى والأثر المادى المباشر عن المدينة . وفندق سان جلير كخير الفنادق التى زرت فى مصر وفى مختلف عواصم أوربا . فإذا أضفت إلى ما تركه نزولنا به من حسن الأثر ، هذا العناء الذى أضجرنا من الراحة ، وهذه الأيام التى قضيناها فى بلاد البلقان ، سهل عليك أن تدرك مدى الأثر الجميل لما استقبلنا به بودابست .

على أن هذا الأثر الجميل جعل يزداد بعد ذلك . والأسبوع الذى قضيناه فى عاصمة المجر هو ، ولا ريب ، من خير أسابيع هذه السياحة برغم جهلنا للغة وعدم وجود أى مصرى نستطيع التفاهم معه أو نعرف البلد من سبيله . وإذ كنت لا أستطيع أن أقول إن مغادرة السفينة لبلاد البلقان قد جعل السفينة خيراً مما كانت ، فإن الذى شعرت به أثناء مقامى فى بودابست هو أننى انتقلت حقًّا إلى أوربا حيث جمل الإنسان الطبيعة بما أوحاه له ذوقه من الجمال ، فجعل منها لنفسه متاعاً صحيحاً ، وحيث أنشأ مظاهر الفن الجميل فى خير صورها . وحيث أطلق الفكر الإنسانى حرًّا فى الاعراب عما يجول به ، حرًّا فى تنفيذه ، لا تقيده الجماعة بأوهامها ولا تكرهه على الخضوع لأعباء خرافاتها .

ثمانية عشر يوماً منذ غادرت مصر لم أشهد فيها من مظاهر الفن الغربى شيئاً يقف عنده النظر . فسألت حاجب (بواب) الفندق لأول ما وصلنا وبعد ما أزلنا عنا غبار السفر عن ملهى نستمتع فيه بالموسيقى والغناء ، ونشهد فيه مختلف المناظر . ودلنا الحاجب على الأورفيوم(L' orpheum) فذهبنا إليه ، وسمعنا موسيقى وغناء ، وشهدنا مناظر ورقصاً . ما أكبر الفرق بين الذى رأينا وبين ما يعرض علينا فى ملاهى مصر ! فيما رأينا ببودابست فن إن يك من الفن الخفيف فهو فن تشعر بجماله وببراعة أصحابه . فن يقصد منه إلى إرضاء النفس الإنسانية لا إلى إثارة مشاعر الإنسان الدنيا . فن تبتهج له تارة وتضحك أخرى ، وتخرج آخر الليل محدثاً نفسك عما شاهدته من جمال ، مكتفياً به غير باحث بعده إلا عن راحتك وطمأنينتك إلى عمل الصباح . وهذا ما شعرت أنا به مع جهلى للغة . ما بالك لو أنى كنت أعرفها ، فأضيف إلى شعر الموسيقى والغناء شعر اللفظ الجميل الترتيل .

وكنا نود أن نرى غير هذا الفن الخفيف فى الموسيقى شيئاً من الجد نسمعه فى الأوبرا لكن أوبرا بودابست لم تكن تفتح أبوابها إلا فى أول أكتوبر ، أى بعد الموعد الذى حددنا لمغادرتنا إياها . فذهبنا إلى ملعب [illegible] شهدنا فيه رواية ألكسندرا ، رواية ظريفة فيها كثير من الكلام وقليل [illegible] موسيقى وسائر الكلام كما تساير [illegible] . وخلاصة الرواية أن يحب فتى فتاة جميلة وتحبه ، ثم يراها الشاب يغرم بها ،

ويكره الفتى الضابط على تركها أو تجريده من سلاحه . ثم يقيم القائد حراساً من الجند على الفتاة . فإذا جاء دور الضابط الذى يحبها فى حراستها ألبسها ملابسه . فخرجت ساعة استبدال الحارس ، فرأى القائد فى تعريض كل من المحبين نفسه للهلاك دليلا على إخلاصهما لحبهما وإقدامهما على التضحية فى سبيله ، فنزل عن شهوته احتراماً لهذه العاطفة الشريفة وتركهما يقترنان .

وكانت الممثلة التى قامت بدور ألكسندرا بارعة الجمال براعة عاونت على حسن التمثيل وأعانها جمال الصوت ، فاجتمع لها من ذلك كله ما شد إليها أنظار الجمهور وقلوبه وعواطفه ، حتى لم يكن فصل من فصول الرواية يتم حتى تدمى الأيدى بالتصفيق ، وحتى يهرع الكثيرون إلى ناحية المسرح يمتعون عيونهم عن قرب بجمال هذه الفتاة الفتانة ؛ رشيقة القوام نحيفة ، حلوة النظرة والابتسامة ، يزين قوامها ملابسها ويضيف إلى رقتها جمالا ورشاقة ورقة . فهى قطعة فنية أبدعها الخالق لتكون كمالا وزينة ، ولتكون على المسرح زهرة بجمالها ، وبلبلا بصوتها ، وروحاً ملائكيًّا برشاقتها وخفتها وبوجودها البسام كله . لم نكن فى حاجة إلى فهم اللغة المجرية لتسرى إلى نفوسنا كل المعانى وكل العواطف التى كانت تعبر عنها هذه الفتاة التى ينطق وجودها كله بأرق المعانى وأجملها . ولولا ضيق وقتنا وكثرة مشاغلنا لترددت لأرى ألكسندرا وسحرها الجمهور سحراً يجذبه إليها ويقفه عند أقدامها .

هذا الفن الجميل فى الموسيقى وفى الغناء والتمثيل يزين مدينة من أجمل المدن موقعاً على ضفاف نهر الطونة . وإذا لم يكن للدانوب جمال البسفور ، فإن الجبال الصغيرة التى تتخلل المدينة والتى جعل المجريون منها حدائق لنزهتهم ، تضيف إلى الدانوب جمالا . ثم إن يد الإنسان لم تترك هذا النهر من غير أن تجعل من الجسور التى يعبر الناس عليها فوقه ومن القصور القائمة على ضفتيه ومن التماثيل المطلة على مياهه ما يكسوه بهجة وجمالا . صعدنا غداة وصولنا فى جبل سان جلير المجاور لفندقنا . وكنا نحسب أنا سنصل من سفحه إلى ارتفاع غير بعيد ثم نعود أدراجنا ، فإذا بنا نسير فى طريق معبد تحيط به حدائق وأشجار حتى يصل إلى حصن قديم أقيم فى الماضى للدفاع عن المدينة . ثم ينحدر الطريق إلى الناحية الأخرى من الجبل تحيط به الحدائق والأشجار ، حتى يصل إلى تمثال سان جلير يطل من فوقه كهف تنحدر عنده المياه على جسر اليزابث المعلق ، ويبارك بالصليب فى يده عاصمة المجر منذ القدم . وذهبنا يوماً على شواطئ النهر المنظمة أبدع تنظيم ، حتى

وصلنا إلى جزيرة سانت مارجريت . جزيرة صغيرة لو أنها تركت وشأنها لما كان لها شأن ولا كان فيها جمال . لكن يد الإنسان جعلت منها جنة صغيرة بما غرست فيها من حدائق ومن أشجار باسقة ، وبما عطرت به جوها من ألوف أشجار الورد التى غرست على حافتها عند ملتقاها بمياه النهر . ولست أستطيع أن أصف جمال جسر فرانس جوزيف الذى كنا نطل عليه من نوافذ فندق سان جلير . فن وجمال فى عمارته يكاد ينسيك جمال جسر الإسكندر فى باريس . فإذا أنت نظرت إليه وإلى البقعة المحيطة به ليلا بهرتك الأنوار ، وكان نظامها أكثر لك بهراً من لألائها . وكم من سويعات قضيتها محدقاً إلى هذا الجسر وأنواره مأخوذاً بها عن كل ماسواها ، ناسياً نفسى وناسياً برد الليل وما قد يجره من مذهبات الصفو . على أن هذه الجسور وجزيرة سانت مرجريت والتماثيل البديعة المطلة على الدانوب ، ليست شيئاً إلى جانب المبانى الفخيمة البديعة القائمة على ضفتيه . ولو لم يكن من هذه المبانى إلا البرلمان المجرى وقصر الهابسبور لكفى بهما لشاطئ الطونة جمالا . لكن القصور المشيدة تتتالى على الجانبين ، ومنها الفنادق الضخمة ، ومنها المتاحف البديعة العمارة ، ومنها القصور القديمة ، ومنها مبانى الحكومة ذات الرهبة والهيبة والجلال . وفوق مياه الطونة وتحت جسوره وحول جزيرة سانت مارجريت وبين هذه العمائر المشيدة كلها الجمال الفنى البارع ، تحبو الزوارق وتمخر السفن وتتهادى المراكب ، فتضيف إلى روعة الفن ، حياة ، وإلى جمال تناسقه روحاً ونشاطاً .

وداخل هذه المبانى أجمل وأروع من مظاهرها . دخلنا البرلمان ودخلنا قصر الهابسبور . وبرلمان المجر من أفخم برلمانات العالم عمارة ، ومن أحسن ما فى عمارة العالم كله عظمة ودقة وإتقانا . ما يكاد يواجهك سلمه الكبير حتى تقف عند أول درجة من درجاته مأخوذاً منبهوراً . يا للعظمة ويا للروعة ويا للجمال ! كلا ! ليس هذا درجاً يرتقى عليه إلى طابق أعلى . وإنما هو معرض فسيح لأكثر آيات الفن الجميل بهاء ودقة ! ما هذه العمد ، وما هذه التماثيل ، وما هذه الصور ! ثم ما هذا السقف ! قف بربك أيها الدليل ولا تسرع ! ذر لنا من الوقت ما يروى ظمأ العين والنفس والروح من هذه الفتنة فى العمارة ! عرض كل درجة من درجات هذا السلم ثلاثون متراً أو يزيد . وعلى الجدران إلى جانب الدرج صور ونقوش وتماثيل وعمد اقتعدت على تيجانها ثريات الكهرباء جل جمالها عن وصف الكاتب . ونقش السقف وصوره ! إن القلم ليقصر عن وصف هذا كله فى رسالة بل فى كتاب ، وأشك فى أن تستطيع ريشة الرسام استظهاره . بل يجب أن يتعاون قلم

الكاتب وريشة الرسام وشدو المغنى ونغم الموسيقى ليعبر عن هذا التجاوب والاتساق فى جمال نادر المثال . فليعذرنى القارئ إذا لم تجد عليه وقفتى عند أولى درجات السلم الكبير شيئاً ، وليصعد معى إلى منتصفه ، ثم ليقف مرة أخرة ذاهلا مبهوتاً . أى شيء هذا الذى يؤدى إليه السلم الكبير ؟ ! هو القبة La Coupole قبة برلمان بودابست . وبحسب القارئ أن أخبره أنى حسبتها قاعة العرش أول ما دخلتها ليقدر جمالها الملوكى . دع البسط النفيسة التى تفرشها ، فالبسط من اليسير فى كل وقت أن تبدل . ولكن انظر إلى عظمة العمارة ودقة الفن فيها وفى زخرفتها . هذه القبة الرفيعة التى تتسع مساحتها لبناء كامل كسيت جدرانها بالخشب الثمين ، وزخرف هذا الخشب بنقوش كلها الدقة ، وكفتت بوارزه بالذهب لا ترى فيه تظاهراً بالفن ، وإنما ترى فيه جمالاً فنياً باهراً . وليست هذه القبة قاعة عرش ، وإنما هى صلة ما بين قاعة الشيوخ وقاعة النواب والسلم الكبير ، بينها وبين كل من القاعتين صالة تدخين واستراحة فيا تماثيل وأنصاب يأخذ جمالها بالذهن فيريحه من عناء الفكر . فأما القاعتان فآيتان ليس لى إلى الحديث عنهما من سبيل أو أعيد ألفاظ السحر والبهر والذهول ! ثم أين لى ألفاظ فن العمارة والزخرفة لأصف إتقان القباب والنوافذ المتصلة بها والعمد التى تقوم القباب فوقها وما على الجدران من ألوان النقش البديع . ومن حول القبة والصالات وقاعات الانعقاد غرف لا عدد لها للوزراء ولمكتب كل من المجلسين وسكرتيريته وإدارته . ومن وراء ذلك كله منظر بديع على الدانوب وجسوره وسانت مارجريت وزهرها وعبيره .

فأما قصر الهابسبور فيرجع تاريخ عمارته إلى ما قبل وصول الأتراك المجر فى القرن الخامس عشر . ولعله ترك فى نفس الأتراك أثراً عميقاً . ففى عمارته وفى أخشابه وتذهيبها مثل لما ترى فى يلدز الكبير فى الآستانة . لكن فيه إلى جانب ذلك عظمة وفناً لم نشهدهما فى شيء مما شهدنا فى الآستانة . هو يقع من شاطئ الدانوب المقابل للبرلمان على ربوة عالية . وفى ظاهره من الوجاهة ومن العظمة ما يقفك عنده ولو لم تعرف أى شيء هو . يصعد من أسفل سفح الربوة إلى أبواب القصر سلم فسيح من الرخام بل - أستغفر الله - سلمان من الرخام يقابل كل واحد منهما الثانى ، وينعرجان فيقتربان ثم ينعرجان فينفسحان . وهما أثناء اقترابهما وانفساحهما تحيط بهما حدائق نسقت من الجازون والزهر أبدع تنسيق . على أن الباب الذى يؤدى إلى هذين السلمين مغلق الآن . وللقصر طريق آخر . فأنت ترتفع إلى الربوة فى فنكلير (مصعد الجبل) لا يقتضيك أثناء الصعود دقيقة كاملة . فإذا

خرجت منه كنت بحذاء القصر المؤدى إلى حدائقه . دخلنا إليه ووقفنا بين الخضرة والأزهار نشاهد جمال عمارته البارع من ناحية ، ونشهد الدانوب يجرى خاضعاً تحته من ناحية أخرى . ثم تقدمنا نسائل عن الوسيلة إلى دخوله ، فلم يكن من يجيبنا حتى اعتزمنا الخروج معتقدين أن ليس إلى زيارة داخله من سبيل . وفى منصرفنا لقينا رجلا داخلا إليه ، فسألناه فأجابنا بإنجليزية ضعيفة كى نتبعه . وأخذنا تذاكر زيارة القصر ، وانتظرنا ذلك الرجل هنيهة ثم تبعناه إلى غرف القصر وأبهائه . ما أشبه سلمه بسلم ما شهدنا فى بودابست من متاحف ! بل إن الفكرة فيه لهى الفكرة فى سلم البرلمان . تتصل كل درجة من درجاته بما بين الجدارين ويصعد السقف مع الدرج كلما صعد . لكن هذا السلم على عظمته وسعته بسيط لا يقفك عنده . وهذه الغرف الأولى الشبيهة بغرف يلدز لا تقفك هى أيضاً إلا بما يقص الدليل من تاريخ الملوك والملكات الذين أقاموا بها . وفى آخر هذه الغرف غرفة أقامت بها « بلا كون » زعيمة الشيوعيين الذين داهموا المجر فى سنة ١٩٢٠ ، وأقام بها الرفقاء أعضاء الدولية الثالثة فدمروا وأفسدوا فيها كثيراً وقد أعادته الحكومة الحاضرة إلى سابق حاله . لكن فى القصر بعد هذه الغرف الأولى عجباً . تخطينا وراء الدليل إلى دهليز أضاءه الدليل بنور الكهرباء الذى أضاء كذلك غرفة بعيدة ، وبينا هو يفعل إذا بنا فى متحف للجمال نادر المثال . كسيت كل جدران الغرفة بأثمن الأخشاب نقشت أدق النقش وحفرت فيها إطارات صور زيتية بديعة لبعض آل الهابسبور . وأستار النوافذ ! يا لجمال النسيج والصناعة والنقش ! والمدفأ بدعة وحده . والمناضد المرصع ظاهرها بطلاء من المينا صُوِّر على ما يريد جمال الفن أن يصور ! وإن أنس لا أنس نقش الخزائن المستندة إلى الجدران ، خزائن لباس الملكة وخزائن عطرها . ألا ليست هذه الغرفة بحاجة إلى ضوء النهار مخافة أن يكسف نوره بعض ساطع هذا الجمال . لكن انظر ! لقد أزاح الدليل أستار منافذه وأطفأ ضياء الكهرباء ، فإذا الغرفة تتبدى فى صورة جديدة من الجمال ليس أقل من الصورة الأولى بهاء وروعة . وكذلك الجمال الصحيح لا يجنى عليه وضح النهار جنايته على الجمال المصنوع الذى يحتاج إلى ضوء مصنوع مثله لتألفه العين . ثم انظر ! إن هذه النافذة لتطل على حديقة تستريح العين والنفس والفؤاد بالنظر إليها أى استراحة . ومن وراء ذلك الدانوب لا يكاد يبدو ، إذ يحجبه حياض من أحنحة القصر فلا تراه العين إلا بعيداً بعيداً .

وانتقل بنا الدليل من هذه التحفة الفنية من أسرار الملكات إلى أبهاء الملك ذات

الفخامة والمهابة والعظمة . فهذه الصالة الأولى بهو استقبال السفراء ورجال الدولة ، تزين جدرانها تماثيل وصور ، وتزين سقفها الفسيح صورة واحدة عظيمة ، وتطل نوافذها على الدانوب . وهى غرفة قديمة بنيت فى عصور الملوك الأولين . أما هذه الصالة الثانية فحديثة لا يرجع تاريخ عمارتها إلى أكثر من مائة وخمسين سنة ، تصل إليها من الصالة الأولى بعد مرورك بصالة أخرى جعلت موضعاً يذر فيه ضيوف الملك سيدات ورجالا معاطفهم وفراءهم ، ثم ينزلون إلى الصالة الثانية صالة الرقص المتصلة من ناحية أخرى بالمقصف . وصالة الرقص هذه يحار فيها الوصف وهى خالية . ما بالك ساعة كانت تزين بالأزهار والرياحين وتعبق بعطور السيدات يفوح شذاها من أكتافهن وأذرعهن ومن ملابسهن ومن بسماتهن ، وتترنم بأنغام الموسيقى يوقعها فنانو الملك من المقاصير العالية القريبة من السقف البعيدة عن الراقصين والراقصات ، فكأنما تتنزل إليهم وإليهن من سموات الوحى ! وهذه الصالة الثانية من الرخام كلها . جدرانها وتماثيلها ونصبها وكل ما فيها رخام مجزع بديع اللون يضيف إلى الرقص والموسيقى وإلى ملابس السيدات وعطرهن جمالاً ورقة . وصور سقفها زينة أخرى تضاف إلى ذلك كله . فإذا آن للرقص أن ينتهى انصرف الكل إلى المقصف . ذكر الدليل أنه كان يحتاج إلى أكثر من أربعمائة كيلو من الحلوى وحدها لكفاية هؤلاء الزائرين إلى جانب ما يتناولون من مرطبات ومفرحات .

هذا القصر القديم القائم على ضفة الدانوب اليمنى من أكثر من خمسمائة سنة يمثل الملك وعظمة الاستبداد وبطشه وجبروته . والبرلمان القائم على الضفة اليسرى من أقل من خمسين سنة يمثل سلطة الأمة ونظام الديمقراطية . فكرتان خصيمتان شبت فى سبيل خصومتهما ثورات وأعلنت حروب وأزهقت أنفس وأريقت دماء ، ولم تهدأ العداوة بينهما يوماً من الأيام إلا أن تذلّ إحدى الفكرتين للأخرى وتحتمى فى كنفها . وقصر الملك يحتمى اليوم فى كنف قصر الشعب بعد أن أكره الشعب الملك على أن يقام له قصر يكون أعلى من قصر الملك مناراً وأروع جمالا وأبعد سلطانا . والقصران مع ذلك هما بجمالهما زينة الدانوب فى مروره ببودابست . وربما ظل صاحبا القصرين زينة نظام الحكم لو أنهما تعاونا فى سبيل جمال الحياة ما تعاون القصران فى بعث معانى الجمال إلى البقعة التى يقومان عليها .

هذان القصران وما يتصل بهما من مبان فخمة أخرى وما يصل بين هذه المبانى من جسور بديعة وما تزدان به شواطئ النهر من طرق وحدائق وما يجرى فوق مياهه من زوارق وسفن ومراكب ، كل ذلك يجعل لبودابست رونقاً ليس للقاهرة حيث يشقها النيل شىء

من مثله . على أن ذلك ليس كل ما فى بودابست من جمال . فهى فى امتدادها عن يمين النهر ويساره تتسع فى طرق جميلة تزيدها بلدية المدينة اليوم جمالا بحسن رصفها ، كما أنها جميلة بالمبانى العظيمة المطلة عليها . والحق أن بودابست من خير المدائن التى تضارعها عمارة وسكاناً فى مبانيها ونظامها . وإن بها لطريقاً يمتد فى آخرها باسم طريق أندرياستى ويصل إلى غاب يشبه غاب بولونيا ، وهو فى جماله يذكرك حقًّا بطريق غاب بولونيا أضعاف ما يذكرك به طريق كسلف فى بخارست . وفى غابة بودابست يقع المتحف الزراعى الذى زرناه صباح اعتزمنا السفر إلى فينا بالقطار الذى يغادر عاصمة المجر فى الساعة الأولى بعد الظهر ؛ فكاد لجماله ودقته الفنية والعلمية وإبداع ما فيه يفوت علينا قطارنا . لكنى سأختم هذا الفصل بالحديث عن المتحف . ويجب أن أتحدث قبل ذلك عن غابة يتوج أعلاها برج إليزابث . هى خير من تلك الغابة التى تشبه غاب بولونيا ، بل وهى قطعة من سويسرا نقلت على ضفاف الدانوب .

فقد أخبرنى مجرى تعرفت إليه فى رومانيا وعلم أنى ذاهب إلى بودابست ، أن جبل القديس حنا ومن فوقه برج إليزابث يستحق الزيارة ، وتفضل فكتب لى العنوان باللغة المجرية . فأرينا هذا العنوان لسائق أوتومبيل ، وركبنا وما ندرى ما جبل القديس حنا ولا ما برج إليزابث . فسار الأوتومومبيل بادئ الأمر فى طريق لا يلفت النظر فيها كثير ، حتى لخيل إلينا أن السائق لم يفهم مقصدنا . واستوقفناه ومر رجل ، فلما رأى عنوان صاحبنا المجرى أشار إلينا أنا فى الطريق . ولم تك بعد ذلك إلا دقائق وإذا نحن نصعد سفح جبل بين أشجار غابة يانعة غاية فى الجمال . ومع أنا على أبواب الخريف فما تزال أوراق الشجر خضراء . وكان السحاب قد حجب الشمس ، وتساقط رذاذ زاد المنظر بهجة . وجعلت السيارة تدور على سفح الجبل صاعدة صاعدة . حتى إذا بلغت فى مسيرتها ارتفاعاً غير قليل . رأينا أشجار الغابة تقل كثافتها ، ورأينا الدانوب وبودابست يتبديان فى هوة سحيقة بعيدة القرار يملؤها ضباب السحاب ، فلا ترى من منازل بودابست ومن النهر وسفنه وجسوره إلا أشباحاً . وتابعت السيارة صعودها ، ثم وقفت بنا عند قهوة ، واضطررنا إلى الصعود بقية الطريق على الأقدام . ولم نتجشم كبير عناء لنبلغ البرج الذى يتوج قمة الجبل ونطل من فوقه على السفوح ، تكسوها الأشجار وعلى النهر وعلى المدينة . هنالك وقفنا نقدس هذا الجمال الرائع أنبتته الطبيعة فنظمه الإنسان على ما أراد له فنه وذوقه الجمال . وظللنا فى إعجابنا زمناً ، ثم عدنا أدراجنا مملوءة نفوسنا طمأنينة بما رأينا مما زادنا حباً لبودابست وأسفاً على جهل لغتها وعلى أنها ليست

اللغة الفرنسية لتكون عاصمة المجر هى باريس الصغيرة حقاً .

أما المتحف الزراعى فآية لم أر مثلها فيما شهدت من متاحف المدن المختلفة . دخلناه وما تزال أمامنا على مغادرة بودابست ساعات ، فدخلنا قصراً فخماً واجهنا أمام بابه سلم فى شكل سلم عمارة البرلمان وسلم قصر الهابسبور . لكن حبلاً مكسوًّا بالقماش الأحمر دلنا على أنه مقفل . فدرنا فإذا الأبواب كلها مقفلة عدا باب صالة واحدة وجدنا بها تماثيل وصوراً دقيقة الصنع غاية الدقة لمختلف الحيوانات . للخيل والبقر والكلاب والفيلة حتى لقد بلغ من دقة بعضها أن جعله حيا تلمح فيه ذكاء ونشاطاً . فلما طفنا فى أنحائها وخرجنا منها ورأينا أنفسنا أمام أبواب مدت حولها الحبال دلالة على إغلاقها ، شعرنا بشىء من ضيعة الرجاء فى متحف طالما حدثنا عنه فى رحلتنا المحدثون . ثم ألفينا رجلاً هابطاً على السلم ، فأقدمنا وصعدنا ودرنا فى صالة فيها تماثيل أبدع الخيل وأصائلها ، وفى أخرى فيها تماثيل الطيور الداجنة فى مختلف أدوار حياتها منذ البيضة إلى الجنين فيها إلى الفرخ إلى الطائر فى كمال قوته . وفيما نحن هناك إذ أقبل حاجب يشرح لنا بالمجرية بعض ما نرى . ثم أشار إلينا هل نحن استأذنا مدير المتحف فى زيارته ؟ ولما أجبناه بالسلب سار بنا إلى غرفة المدير ، فحدثناه بالإنجليزية طالبين هذه الزيارة . وكلف المدير الحاجب أن يطوف بنا فى المتحف ، فشكرنا وخرجنا . انقضت ساعتان كاملتان ونحن نطوف فى هذا القصر مسرعين مخافة أن يفلت موعد القطار ، ومخافة أن يفوتنا شىء من هذا الجمال والعلم والفن مما اجتمع فى المتحف . ليس صنف من أصناف الزراعة المعروفة فى المجر ولا حيوان من الحيوانات الزراعية ولا صناعة مما يتصل بالزراعة إلا مثِّل هنا تمثيلاً علمياً دقيقاً . فالحرير منذ شرنقته إلى أن يصير حريراً ومختلف ما يصنع منه ممثل كمال التمثيل ؛ لأن دود القز يتغذى على التوت ؛ فهو إذن متصل بالزراعة . والأخشاب كلها منذ كانت شجرة إلى أن صارت صالحة لصناعة الأثاث . والنحل والعسل ، والقمح والخبز على مختلف أنواعه . والآلات الزراعية . وكل شىء زراعى على أحدث ما أدى إليه العلم . وهذا كله فى نظام جميل كله الفن . وهذا كله يسحرك عن نفسك وعن وقتك إلا أن تكون مثل ما كنا على سفر .

وهذا المتحف الزراعى الفذ بجماله العلمى ودقته الفنية مقفل الأبواب دون الكثيرين ، لأن العلماء الذين يحتاج اليهم أمر العناية به ليسوا فيه . لعجز ميزانية المجر عن [illegible] يحتاجون إليه من رواتب ! ألبس هذا محزناً ؟

ونسيت أن أذكر زيارتنا لمتحف الفن الجميل فى بودابست وزيارات غيرها . لكن بحسبى ما ذكرت لتترك بودابست فى نفسنا من جميل الأثر ما لم تتركه مدائن غيرها . وربما كان مرورنا بها قبل مرورنا بما سواها من كبريات مدائن أوربا له من هذا الأثر فضل . لكنا تركناها بعد زيارة المتحف الزراعى ونحن نود لو أن لدينا من الوقت ما يسمح بمقام فيها أطول مما قمنا . وما نزال إلى اليوم كلما ذكرناها ننعم بتلك الذكرى ونتمثل ما اجتمع أمامنا من جمال الطبيعة وجمال الفن ، فنسعد به بمقدار ما تحتمل النفس فى الحياة من سعادة .

المجر ضحية الحرب وبعيثتها

أشرنا فى الفصل السابق إلى المجرى الذى لقينا أثناء سفرنا من بخارست إلى سنايا ، وأشار علينا بزيارة جبل سان جان وبرج إليزابث . وإذ كان هذا المجرى عضواً فى السلك السياسى فقد تفضل فأعطانى بطاقة قدّمنى بها إلى الكونت شاكى عامل الاتصال فى وزارة خارجية المجر برجال الصحافة ، وذكر لى أنه أو سكرتيره يستطيع أن يرشدنى إلى ما أريد أن أرى فى المجر وفى عاصمتها . وذهبت غداة وصولى بودابست إلى وزارة الخارجية ، وطلبت مقابلة الكونت شاكى ، فأخبرنى سكرتيره ، بعد أن حمل إليه بطاقتى أنه مشتغل فى لجنة ، وأنه على استعداد لمقابلتى فى وقت آخر إذا كان لدىّ ما أريد أن أحدثه فيه ، كما أنه كلفه أن يقوم بما يستطيع به من خدمتى . وسكرتير الكونت شاكى شاب ظريف يتقن الفرنسية . فلما أخبرته أنى أريد زيارة بودابست والمجر قدم لى كتاباً عن بودابست ، ودلنى على شركة السياحة المجرية لأقف منها على كل ما أريد معرفته ، ثم أشار إلى خريطة المجر المعلقة على الجدار مبيناً لى الأماكن التى تلفت نظر السائح . وخريطة المجر هذه ليست خريطة المجر الحديثة على نحو ما وضعت معاهدات الحرب حدودها ، بل خريطة المجر القديمة وضع على حدودها الجديدة خط أحمر ظاهر تمام الظهور .

وإذ استطرد بنا الحديث عن المجر أشار المجرى موظف الخارجية إلى ما وراء الخط الأحمر قائلاً : كانت هذه الأراضى كلها ضمن المجر قبل الحرب . أما الآن فقد أخذت هذا القسم الشرقى رومانيا ، وأخذت هذا القسم الجنوبى يوجوسلافيا وإيطاليا ، وأخذت هذا القسم الشمالى تشيكوسلوفاكيا . انظر إلى هذا القسم الشمالى ، هو على صورة الغول Dragon . وكذلك كانت المجر ضحية الحرب وإن لم تك لها فى إعلانها يد ، ولا كانت عليها فى آثامها تبعة .

كذلك قال سكرتير الكونت شاكى ، وقاله فى لهجة تدل على الأسف وفى لغة واضحة صريحة . لكنه لم يكن بليغاً فى أسفه على ما أصاب المجر من نكبة الحرب بلاغة جماعة من عامة المجر لا يعرفون الفرنسية ولا يدلون على عواطف الحزن بأكثر من إشارات لم تكن أقل أثراً فى نفوسنا من عبارة ذلك الشاب المهذب المتعلم . بينا كنا نزور المتحف الزراعى

فى صحبة العامل الذى كلفه مدير المتحف بمصاحبتنا وقفنا بإزاء خريطة للمجر كخريطة وزارة الخارجية ، وأشار الرجل بيده إلى المجر القديمة وإلى حدود المجر الجديدة ، وكاد الدمع يذرف من عينه ، ثم فهمنا منه مبلغ أساه على أن صارت المجر صغيرة كما أكرهها الظافرون فى الحرب أن تكون . وأشهد لقد كان حزن هذا الرجل البسيط ناطقاً فى نبرات صوته وفى حركاته العصبية . رحم الله أياماً كنا نشهد فيها الفرنسيين يجللون بالسواد تمثال ستراسبور القائم فى ميدان الكونكورد بباريس حزناً على الألزاس واللورين . وبقى هذا الشعور بالألم لضياع فلذة غالية من الوطن ينتقل فى أفئدة الفرنسيين من جيل إلى جيل ، حتى كان هو الحافز الأقوى لفرنسا أن تثابر فى الحرب العظمى وتنتهى إلى الفوز ، وأن تظفر من جديد بالألزاس واللورين . وها هم أولاء المجريون يبكون على ما ضاع منهم ، ويبكى مثلهم أهل النمسا ، ويبكى الألمان – ولكن فى إباء وبدموع حائرة فى محاجر العيون – على الألزاس واللورين ، وعلى بولونيا ، وعلى دانتزج . ترى ماذا يكون من أثر ذلك كله فى مستقبل أوربا ؟ وهل هى الحرب ؟ أو هى الثورات تتنفس عنها هذه الأفئدة المكلومة ؟

وكان يسيراً أمر هذا الإحساس الذى يغذيه المجريون فى نفوس أبنائهم لو أنه وقف فى حدود بودابست . لكنا رأيناه متجلياً كذلك فى ربوع المجر ، إذ زرنا منها غير قليل مما أشار علينا سكرتير الكونت شاكى بزيارته . وفى هذه الربوع المجرية جمال وها روعة ، رغم سهولة أراضيها الزراعية ، مما يجعلها عظيمة الشبه بوادى النيل . تناولنا طعام الغداء ب قرية مازاكوفتش عند صاحب فندق . أستغفر الله بل حانة ، بل محل عطارة كالذى فى الريف . وكان صاحب هذا المكان يعرف بعض الإنجليزية ، فإذا به يحدثنا حديث موظف الخارجية وعامل المتحف الزراعى ، وإذا به يخفق فؤاده لوعة وأسى لهذا الذى سلخه الحلفاء من وطنه كرهاً واعتسافاً .

* * *

ومازا كوفتش هذه قرية ظريفة يقصد إليها كثير من السائحين أيام الأحد . وهم يقصدونها يجذبهم إليها إعلان عما يرتديه أهلها فى ذلك اليوم من ملابس قومية ، وما تطرزه بناتها بالحرير المختلف الألوان . قصدنا إليها صباح الأحد الثامن عشر من سبتمبر فقضينا أكثر من ساعتين فى قطار السكة الحديدية يقطع بنا مزارع وحقولا وبعض أحراش قليلة . فلما وقف فى محطتها إذا سرب من بناتها فى هذه الملابس القومية يستقبلن النازلين فيها وملابسهن مزركشة بتطريز الحرير ناصعة الألوان الحمراء والصفراء . ووقف السرب

باسمات بناته يحيين النازلين قرية مازاكوفتش ، ولا يأبين على من يريد أن يأخذ صورتهن الشمسية بالوقوف أمامه ما أرادهن أن يقفن . وجاء معهن رجال ارتدوا هم أيضاً الزى القومى . وبمقدار ما يلفت زى البنات النظر تزورّ العين عن زى الرجال ازوراراً . فهو جلابية عليها جاكتة وبرنيطة سوداء عالية يطوقها نطاق أخضر وتزينها ريشة فى بعض الأحايين . أما أحذية هؤلاء الرجال فضخمة تناسب أعمال الزراعة .

وما هو إلا أن انحدر السائحون إلى طرق القرية حتى ركب هؤلاء الفتيات عربة وعدن بها من حيث أتين ، ولم نر لهن بعد ذلك من أثر ، فدلنا ذلك على أنهن مجرد إعلان عن قريتهن . فأما سائر أهل البلد فيلبسون لباساً قومياً حقا ولكن فى زخرف أقل بكثير من زخرف أولئك الفتيات . فأما الرجال فرأينا فى طرق القرية من خرفهم غير ما يرتدى الذين صحبوا البنات إلى المحطة ، تتدلى على سيقانهم أمراط مزركشة بالحرير زركشة أردية الفتيات أو هى أثمن ، وصدرياتهم مزركشة كذلك بالحرير ، وكلهم فى لباس العيد القومى . أما البنات والأولاد فالأقلون منهم يرتدون هذا الرداء المجرى الخاص ، على حين يحتفظ الأكثرون برداء كل يوم ، مما يدل على أن الحياة الأوربية العامة تجنى على هذه الآثار القومية وتنذر بأن تقضى عليها عما قريب .

كانت زيارتنا هذه لمازاكوفتش أول زيارات هذا العام للقرى الأوربية . لذلك أذكرتنى زيارات قمت بها من ست عشرة سنة مضت فى قرى التورين بأواسط فرنسا . وزادنى لتلك الزيارات القديمة تذكراً ما بين التورين والمجر من شبه فى سهولة الأرض واعتدال الجو . وأذكرتنى أكثر من هذا ما بين عيش القرويين الأوربيين وعيش القرويين فى مصر من فرق شاسع وبون بعيد . فى مازاكوفتش مدرسة ومستشفى . وكلتاهما جميلة يبعث تناسقها إلى نفوس أهل هذه الأرياف معانى التجاوب والجمال . ويشعرهم بما فى العيش من نعمة ما أراد الإنسان أن يجعل العيش ناعماً ، وما عاون الطبيعة وهذبها لتجيب نداء النفس الطامحة إلى صور الجمال . هذا فضلاً عما إلى جانب المدرسة والمستشفى من كنيسة ومن حديقة عامة ، ومن مظاهر أخرى ترضى مطامع نداء النفس الإنسانية .

ووقفنا عند بعض نوافذ منازل القرويين فعجبنا ؛ لا تزيد مساحة المنزل على مساحة منزل الفلاح المصرى . لكن للمنزل نوافذ . ومن نافذة غرفته الواحدة يتبدى السرير ومنضدة عليها كتب قد يتعذر عليك أن تدقق فى استشفافها لما يحول بينك وبينها من أستار على النافذة من الدنتلا أحياناً ، ومن تطريز ربة البيت أحياناً أخرى ، تطريزاً جمع بين

الدقة والجمال . فى موقفى هذا تذكرت الفلاح المصرى ، وتذكرت الكلمة الكاذبة التى يقولها الأكثرون على أنها حقيقة مقررة : مصر بلاد غنية . نعم ! قد تكون هذه الكلمة صادقة إذا أخذنا بأقوال النساك : « القناعة كنز لا يفنى ، والغنى غنى النفس ، وأنت أكثر الناس غنى ما كنت أكثر فى الدنيا زهدا ، فأغناك زهدك عن الناس » . لكنها كلمة كاذبة بالمعنى الذى يقولها أصحابها به ، وبالمعنى الاقتصادى الذى يقدر الغنى فى كل الأمم على موجبه . هذا الفلاح المصرى الذى تتصبب ثروة مصر من عرق جبينه لا يعرف منزله سريراً ولا كتاباً ولا شيئاً من معانى النعمة الإنسانية ، بل هو بالوجار أشبه منه بالبيت ، وللحيوان فيه من أسباب الحياة مثل ما للإنسان أو خير مما للإنسان . وهو مع ذلك بعض رأس ماله ، كما أن بيت الفلاح المجرى وبيت الفلاح الأوربى ، بعض رأس ماله . فأما فرق أسباب المعيشة بين الفلاح المصرى وغيره من فلاحى أوربا ، فيثير فى النفس من عواطف الإشفاق عليه مالو عرفه لما رضى عن حاله ولا صبر عليها . وأحسب أن ليس له عن هذا الشظف عزاء يمسكه فى سكينته إلا ما يرى من عيش الموسرين إلى جانبه وعظيم شبهه بعيشه . فهؤلاء الموسرون من المصريين يؤثرون الآخرة على الأولى ، أوهم بالأحرى يؤثرون اكتناز المال فيكونون عبيده ، على إنفاقه ليكون لهم متاعاً ونعيماً . وهم فى عبوديتهم للمال يحسبون أنهم سادة غيرهم ؛ لأن هذه العبودية تنحيهم بعض الشىء من تحكم الغير فيهم .

* * *

وما رأينا وما سمعنا فى مازاكوفتش هو ما رأينا وما سمعنا فى بلاتون فيرد ، وإن تكن الطبيعة عند بلاتون غيرها عند مازاكوفتش ؛ فهذه القرية لا تزيد على غيرها من القرى فى موقعها وفى نظامها إلا هذا الزى القومى الذى وصفنا . أما بلاتون فتقع على بحيرة تبعث فى النفس خيالا وإن كان ضئيلا من بحيرات سويسرا . وصلنا إلى محطتها فى السكة الحديدية للحكومة ، وانحدرنا وسط طرق القرية قاصدين إلى مرسى سفينة البحيرة . طرق كطرق مازاكوفتش وسائر قرى المجر مما شهدنا فى أسفارنا وكطرق القاهرة نظاماً ورصفاً واتساعاً . بل إن فى بلاتون من الجمال ما ندر أن تجد فى القاهرة مثله . فيها فندق يطل على البحيرة كأنه فندق سميراميس إذ يطل على النيل ، ولا يقل عنه وجاهة ولا نظاماً . وبين الفندق والبحيرة ومبانى القرية ميدان فسيح غرست فيه الحدائق ونسقت فيه الأزهار خير تنسيق . وبإزاء هذه الحدائق أقيمت حمامات على البحيرة كحمامات سان استفانو نظاماً وعناية . وفى طرق القرية متاجر وحوانيت قلّ أن تجد مثلها متاجر وحوانيت فى رمل الإسكندرية جميعا .

على الجانب الثانى من بحيرة بلاتون تقوم قرية شيوفك ، يصل الإنسان من « بلاتون فيرد » إليها على متن باخرة صغيرة تقطع الطريق فى ساعة من الزمان . وتقع مساكن شيوفك بين غابات وأحراش تذهب مع النظر إلى غاية الأفق . وقد كانت فى ذلك اليوم — ولم يكن يوم أحد — ساكنة لا يرى الإنسان فيها من المارة إلا بعض العجائز والخادمات ، ولا يرى من الناس إلا بعض عمال يشتغلون على مقربة من البحيرة ، على أن بها رغم سكينتها وهدوئها مطعماً ظريفاً عند مرسى الباخرة ، يجد فيه الإنسان طعامه وشرابه بسيطاً نظيفاً يطمئن إليه كل الطمأنينة . كما يطمئن إلى خدمة زوج صاحبه السمينة ، حتى لتحسبها سيدة مصرية من أهل الجيل الماضى .

شيوفك وبلاتون فيرد وغيرهما من القرى الواقعة على شواطئ بحيرة بلاتون مصايف ظريفة يؤمها أهل المجر وغير أهل المجر من السائحين . وهى لذلك ، كأكثر المصايف الأوربية ، بلاد رشيقة خفيفة الروح ، قصد بها أهلها أن ينسى السائحون بين أشجارها وأزهارها ومياهها المتأنقة تحت ضوء الشمس وأشعة القمر ما ينوءون به عامهم من متاعب ومشاغل . بل إن أهل هذه المصايف لم يكتفوا بما حبت الطبيعة به بلادهم من صور الجمال ، فزادوها جمالا بما شادوا من عمائر ظريفة ، وبما جلبوا من ألوان التسلية كالموسيقى والرقص والتمثيل وغيرها ، والحق أن المصطافين فى هذه البلاد ينسون مشاغل الحياة ومتاعبها نسياناً تاماً ، ويمتعون أنفسهم بهذه المشاهد والملاهى متاعاً صحيحاً يريحهم ويعيد إليهم قوتهم ونشاطهم ليعودوا إلى عمل الحياة بقوة مضاعفة .

مع هذا فقد سمعنا من صاحب مطعم شيوفك تلك النغمة الحزينة ، نغمة الأسى على ما ضاع من المجر الكبرى . وما آل إليه هذا الوطن العزيز فى حدوده الضيقة الجديدة التى أكرهه عليها المنتصرون فى الحرب على حين لم تكن للمجر فى الحرب يد ، ولا عليها فى إعلانها تبعة .

* * *

على أن أهل المجر لا ينسون إلى جانب مصابهم هذا ما أنقذتهم عصبة الأمم من إفلاس هددهم بالبلشفية شر مهدد ؛ حتى لقد فتح أمامها أبواب بودابست وطوّع للثائرة الشيوعية « بلاكون » أن تجلس فى قصر الهابسبور . فقد أصاب المجر ما أصاب النمسا من مجاعة بسبب تدهور أسعار قطع الكورون ، فتدخلت عصبة الأمم وأنشأت لهذه الدولة عملة جديدة هى البنجو ، وثبتت سعرها بأن أعفت المجر من دفع أقساط ديون

الحرب عشر سنوات كاملة ؛ فكان من أثر ذلك أن صرت تلمح الرخاء فى أنحاء المجر ، رخاء سببه خصب أرض هذه البلاد وإقدام أهلها على العمل والسعى لاستنقاذ وطنهم المحبوب من مخالب العسر والفاقة .

ثم إن أهل المجر ليذكرون إلى جانب هذه الحسنة حسنة أخرى ، إن لم يكن لهم فيها كل العزاء عن مصابهم ، فلهم من الاعتزاز بها ما يهوّن بعض الشىء من وقع المصاب ، تلك الحسنة هى استقلال المجر استقلالا صحيحاً يمكنها من أن تفكر فى شؤونها غير خاضعة إلا لما توجبه مصلحتها . فقد كانت أيام اندماجها فى إمبراطورية النمسا والمجر خاضعة لحكم النمسا ، بل كانت معتبرة مستغل النمسا ومخزن طعامها . وإذا كان من الغلو تشبيه ما كان بينها وبين النمسا بما بين الهند وإنجلترا ، فإنها كانت دائمة الإحساس بأنها فى مقام دون ما يتفق ومطامعها القومية والجنسية . أما اليوم وقد استقلت وبعثتها الحرب أمة لها وحدتها بعد أن كانت هى ضحية الحرب ، فأمامها من الظروف الاقتصادية ما يمكنها من أن تستعيد مكانتها فى زمن قصير أو طويل .

وإنك لتلمح من مظاهر هذا الاعتزاز فى أنحاء المجر جميعاً الشىء الكثير : تلمحه فى القرى كما تلمحه فى بودابست . فإلى جانب الأسى على ما أصاب الوطن العزيز من انتقاص أطرافه تهتز النفس المجرية بذكريات المجر القديمة وبما سلف للأجداد من تاريخ مجيد ، كما تهتز بالأمل الكبير فى مستقبل زاهر ، وبالرجاء فى علاقات دولية صالحة .

كان معنا فى ديوان السكة الحديدية بين بودابست ومازاكوفتش سيدتان وثلاثة رجال ظلوا يتحدثون معظم الطريق . وخرجت إلى ممر العربة وخرج بعد ذلك أحد هؤلاء الرجال ووقف إلى جانبي يسألنى الأسئلة العادية التى توجه للسائح عن جنسيته وعما فى بلاده ، ثم استطرد بنا الحديث إلى المجر ، فتحدث عما أصابها بسبب الحرب ، وانطلق بعد ذلك يتحدث عن الترك وغزوتهم المجر وصدهم بعد ذلك ، وعما للجنس المجرى من صلابة فى العمل وقوة فى الإرادة ، وما يرتجيه المجريون بعد استقلالهم من أمل واسع فى مستقبل مجيد . وعجيب أنك تقرأ الشىء الكثير عن الدعوة لانضمام النمسا إلى ألمانيا ، وعن رغبة النمسا فى هذا الانضمام ، وعن تخوف الحلفاء من آثاره . فأما المجريون فلا يبتغون عن استقلالهم بديلا . وإنك لو امتحنت نفوسهم وتسمعت إلى خفايا ضمائرهم إذن لرأيت فيها مثلما كان فى نفوس الفرنسيين قبل استرداد الألزاس واللورين . وكيف يكون أمرهم غير هذا وهم يستبقون خريطتهم

كما كانت قبل الحرب يرتجون فى حادث جديد أن ينصفهم من ظلم الحرب !

وفى انتظار هذا الحادث ترى المجر التى كانت ضحية الحرب والتى بعثتها الحرب ، تجدّ وتعمل لتكون قوة اقتصادية فى المستقبل . وإذا كانت بعيدة اليوم غاية البعد عن حدود هذا الميدان فهى تعمل بكل ما أوتيت من قوة لبلوغه . وقد لا يتعذر عليك أن تتصور ما يكون من أثر ذلك فى سياسة أوربا المستقبلة ، وما يكون من تأثيره فى سلام العالم .

مغرب شمس

بين بودابست وفينا

يقوم قطار الإكسبريس الذى يغادر بودابست إلى فينا فى الساعة الواحدة بعد الظهر . أو فى الساعة الثالثة عشرة كما يقول دليل السكة الحديدية . وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف حين كنا ما نزال مأخوذين بجمال العلم والفن فيما نرى من معروضات متحف بودابست الزراعى . وخرجنا بعد دقائق إلى الغابة وجعلنا نطوف نلتمس أوتموبيلا يقلنا إلى الفندق ، وما فتئ لدينا بعض الرجاء فى اللحاق بالقطار . لكن كل دقيقة بل كل ثانية كانت تمر كانت تضعف عندنا هذا الرجاء . وما أشد إذ ذاك حنقنا كلما مر بنا أوتموبيل مشغول براكبيه . ويزيد بنا الحنق والغيظ كلما مرت برهة ونحن نسرع مهرولين إلى أبواب الغابة ، ومع أنا سررنا كل السرور بمقامنا فى عاصمة المجر ولم يكن لينتقص من سرورنا أن نقضى فيها يوماً آخر ، فإن اعتزامنا مغادرتها وإخطارنا الفندق بهذا جعلنا نرى فى مقاومة الظروف لعزمنا تحدياً لإرادتنا فاستثارة لغريزة نضال الظروف وحرصاً على التغلب عليها حتى لا تطأطئ الأنفة الإنسانية فينا لأحكام المقادير إذا كانت قديرة على أن تظل حاكمة للمقادير مصرفة للظروف . لذلك فرحنا وزاد بنا الفرح حين استوقفنا أوتموبيلا يقلنا ، وإن ظل فرحنا ممزوجاً بالخوف ألا يتحقق عزمنا . وطلبنا إلى السائق أن يسرع إلى الفنـــدق ، وجعلنا ننظر إلى عقارب الساعة فى كل دقيقة عدة مرات ، وصرفنا شغلنا هذا عن التفكير فى الاستمتاع بجمال الوقت وبالشمس المشرقة فى سماء صفو ، وبالهواء الرقيق المنعش لكل ما فى المدينة والباعث لها مختلف صور النشاط المرح الجميل .

وبلغنا الفندق ولم يبق على موعد القطار غير ربع ساعة . ودفعنا حسابنا ، وطلبنا إلى رجال الفندق إنزال متاعنا . على أن فكرة مرت بخاطر السائق وأفضى بها إلينا عن طريق مترجم الفندق جعلتنا أكثر اطمئناناً لإدراك القطار . ذلك أن يذهب بنا إلى محطة « بودابست كلانفرد » بدل الذهاب إلى المحطة العامة . وإذ كانت « كلانفرد » ضاحية والطريق إليها خلواً ، فيمكن العربة أن تنهب الطريق المختزل إليها ، فنستفيد بضع دقائق تكفل لنا إدراك القطار .

ووصلنا المحطة ، وتولى الحمالون العناية بمتاعنا بعد ما اطمأنت نفوسنا إلى أنا انتصرنا على الظروف واحتفظنا بأنفتنا الإنسانية عزيزة كريمة . وبقينا ننعم بهذا الانتصار فى انتظار القطار ، وننعم معه بما شغلنا قبل ذلك عنه من جمال الوقت وصفو السماء ورقة الهواء . ولما أوينا إلى ديواننا فى القطار وأوى إليه معنا متاعنا كان لنا فى ابتسامنا للانتصار شاغل عن التفكير فى مغادرة بودابست وفى انحدار أيام جميلة من حياتنا فى غيابات الماضى وما يثيره إحساس كهذا من بعض الوجوم فى قرارة النفس . وذهب القطار ينهب بنا سهول المجر ويلقى من الضوء الساطع على خضرتها البادية الذبول لمقتبل الخريف ما جعل هذه الخضرة تبسم وتنتعش وتشعر بريح كأنه ريح الربيع . وتبدت من هذه الخضرة الذاهبة مع سهول المجر إلى غاية حدود الأفق ألوان ضاحكة وأخرى باسمة تتعاقب مع سير القطار مبتهجة كلها بضياء الشمس وبنفحة ربيعية ضعف فيها أملها منذ توالت عليها رياح الخريف . وظللنا كذلك ساعتين متعاقبتين اقتربنا أثناءهما من الحدود بين المجر والنمسا . وفيما نحن كذلك مبتهجين مع الزرع والشجر بلألاء الضياء إذا غمام بدأ يعترض صفو السماء ، وإذا سحب بدأت تنضم للغمام وتتراكم ثم تتراكم حتى أذهبت الأمل الربيعى الضاحك ، وأعادت إلى الخضرة الباسمة قتاماً ورعدة . وأعان السحاب ريح بدأت بليلة رقيقة ثم تزايدت حتى صارت صرصراً عاتية . وتلاطمت السحب فإذا البرق يخطف الأبصار ، وإذا الرعد تصطك له المسامع ، ثم إذا المطر ينهمر انهمار السيل ، فلا يمنع انهماره خطف البرق ولا قصف الرعد ولا تزايد دكنة السحاب وقتام الجو . على أن عزيمة القطار المستمدة من عزيمة الإنسان لم تهن ولم تفتر ، بل ظل مواصلا طريقه يشق الرياح والمطر ويهزأ بالبروق والرعود . واحتمينا نحن فى ديواننا بأن أحكمنا إقفال نوافذه ، وكنا قبل ذلك قد فتحناها لنتصل من نفحة الربيع بأمل لم يلبث أن ولى وذهب . ويخطف البرق ويقصف الرعد وتضرب أمواه المطر زجاج النوافذ كأنها أسواط من نقمة السماء ، وننظر نحن إلى ذلك كله مبتهجين به ابتهاجنا بالشمس والضوء والهواء الرقيق من قبل ، واجدين فيه جديداً تطرب له النفس طربها لكل جديد لا يصيبها منه مكروه .

ووقف القطار فى محطة الحدود بين الدولتين اللتين كانتا قبل الحرب دولة واحدة ذات كلمة رهيبة . ونظرنا فإذا مراقبو الجواز ورجال الجمرك قد التحف كل واحد منهم معطفاً من جلد يسبح به فى لجة الجو . ويصعدون إلى القطار لأداء واجبهم ، فيتركون معاطفهم المطيرة عند أبواب العربات ويمرون يحيون السَّفْر فى رقة وأدب ، ويؤشرون على جوازاتهم

ويسألونهم عن متاعهم فى رقة وأدب كذلك . والمطر أثناء ذلك دائم الانهمار ، والجو قتام ، والسحب متراكمة ، والظلمة شملت الجو حتى ما تكاد ترجو فى شعاعة من الشمس تبعث إلى هذا المأتم المكروب عزاء أو أملاً . وظللنا كذلك بعد ما انطلق القطار فى أرض النمسا . ظللنا ساعة أو أكثر من ساعة نستمع إلى نقر المطر على الزجاج ، ونرقب تسرب بعضه بين أخشاب النوافذ . فلما آن لهذه الثورة أن تهدأ ، وللسماء أن تمسك ماءها ، وللسحب أن يتوارى بعضها بعد ما أضناه الانهمار ، كنا قبيل الغروب ، وعلى ساعة من « فينا » .

وحانت منا التفاتة إلى ناحية الغرب ، فإذا صيحة تدفعها الغريزة إعجاباً وإكباراً ، وإذا أنفاسنا تمسكها الصدور أمام جلال المغرب الرائع . بقيت فى هذا الجانب من السماء سحب منثورة اختبأ وراءها قرص الشمس ليرسل فى أثير الهواء المشبع بذرات الماء من أشعته الدامية ما تخشع أمامه القلوب تقديساً لجماله الباهر . وتحيط أطواق من عسجد ومن لجين بالسحب البعيدة عن القرص ، فتجعل منها فى لجة السماء بحيرات سبكت شواطئها من فضة ومن ذهب . ثم إذا هذه الأطواق تستحيل فى مختلف ألوان قوس قزح التى حللتها كرات الماء الباقية معلقة فى الهواء . ثم إذا الغرب كله التهب بنار وبنور يسرع تتابع ألوانه ، كأنما تتلاعب بها بلورات الماء التى انعكست عليها أشعة ضياء الشمس المسرعة الانحدار . وازدادت حمرة السماء كأنما اختلط فيها باللهيب دم جعل ينهمر انهمار المطر من قبل ، أثراً لمعركة حامية أعلنها الملائكة والشياطين بين السحاب والسماء . وكلما توالت هذه الصور الأخاذة باللب والفؤاد ازددنا تقديساً للطبيعة المحسنة الجزاء بعد غضبها وثورتها . وأذكرنى هذا المنظر وملائكته وشياطينه حديث عكرمة إذ قال : « والذى نفسى بيده ما طلعت الشمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقولون لها اطلعى ، فتقول أأطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فيأتيها شيطان حتى يستقبل الضياء يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها . وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها . وذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تطلع بين قرنى شيطان وتغرب بين قرنى شيطان » . ذكرت بإزاء منظر الغروب الرائع حديث عكرمة هذا ، وسألت نفسى : أكل هذا اللهب وكل هذه الدماء التى اصطبغت بها السماء لهب شيطان واحد ودماؤه ، أم هو لهب المعركة الحامية بين الملائكة والشياطين ودماء عديد منهم لا يحصيه علم الإنسان ؟ ! .

ظلت المعركة السماوية حامية الوطيس زمناً لم نر فيه المتحاربين ولم نر غير آثارها

الدائمة التغير يتغالب فيها الدم واللهب والفضة والذهب . وكأنما كان هؤلاء الملائكة والجن فنانين فى قتالهم ، فلا يرضون أن يتناثر من دمهم ولهبهم ومن فضتهم وذهبهم إلا المقادير التى تبدع فى السماء أبهى الصور وأكثرها أخذاً باللب ولعباً بالفؤاد . فهذا الشفق الملتهب بالحمرة القانية شق طريقه من خلاله شعاع متورد ، كأنما الشمس تعود أدراجها كى تعيد إلى النهار المحتضر حياة ونشاطاً . ثم لا يلبث الشعاع أن يخبو لتندلع فى نواحى السماء الداكنة الزرقة ألسنة كأنها فى حمرتها ألسن الثعابين الضخمة المخوفة . ويبدو فى الجانب الآخر قوس قزح بألوانه السبعة ، ثم يختفى ، ثم يبدو من جديد ، ثم إذا اللهب القانى قد غمر ألسنة الثعابين وامتد حتى أحاط سحباً مجاورة بأطواق من نار . ثم إذا هدنة فى المعركة السماوية يشعرك بها بدء انحلال الدماء واستحالة لون السماء إلى شىء من الزرقة . ثم ما نلبث أن نرى صورة أخرى للمعركة بدت فى الجانب الشرقى من السماء ، حتى لكأنما لهذه الحرب ميادين مختلفة مثلما كان للحرب العظمى . ولقد كان هذا المغيب حقاً مغيباً أعظم ، وكان هذا الشفق مما يتضاءل أمام جلاله كل شفق .

وشدت أنظارنا إلى السماء أثناء هذه الحالات جميعاً ونحن ذهول شردت ألبابنا فى عبادة هذا الإبداع ، مفتونون به عن كل ما يتخطاه القطار من سهل أو جبل ، ناسون أن ثم أرضاً ، وأنا نقطع أبعاد هذه الأرض إلى غاية نقصدها . ولم نتبادل أثناء ذلك إلا عبارات الإعجاب : أجدّ فى السماء جديد يهتز الفؤاد لروعة جماله ؟ ولم يوقظنا من ذهولنا إلا أن تبدت عمائر « فينا » يحجب بعضها بعض السماء . هنالك أدركنا أن فى الحياة شيئاً غير ما كنا نشهد ، وأسفنا لهذا الذى أفسد علينا بهرنا وذهولنا ، والذى نبهنا إلى الزمن وفراره ، وإن كانت الطبيعة قد عنيت بأن تهوّن علينا من أسفنا ، فلم تقم عمائر فينا إلا ساعة آذن المغيب بالانحدار فى غيابات الليل وظلماته .

وذكرت خلال الدقائق الباقية على دخول القطار المحطة مغارب الشمس التى بقيت مرتسمة صورتها فى نفسى فصارت بذلك جزءاً من حياتى . ذكرت مغرب شمس سنة ١٩٢١ وأنا على بحيرة ليمان صحبها مطلع قمر ما رأيت وما أحسبنى أرى مثله شعراً وجمالاً . وذكرت مغرب شمس شهدته فى الرفييرا ووراء جبال « فل فرانش » وآثاره الفاتنة على البحر المتوسط . وذكرت مغارب شمس مصر الساحرة ، ومن بينها ما شهدت بين طهطا وسوهاج سنة ١٩٢٢ ، لكنى لم أذكر فى هذه كلها ولا فى غيرها واحداً فى روعة هذا المغيب الباقية آثاره الذاهبة تتبدى بين عمائر عاصمة النمسا .

أم هى كانت ما كان هذا المغيب روعة وجلالاً ، ولكننا معشر الإنسان نستمتع بما فى الحاضر من مسرة أو ألم ، ومن حزن أو فرح . حتى يهوِّن علينا النسيان أمره ، ليكون دائماً متاعنا بجمال الحاضر ونعيمه دائم التجدد لا تفسده الذكريات الحية لما ابتلعه جوف الماضى من مشاهد ومشاعر ؟ لا أدرى ! ولكنى ما أزال أذكر مغيب الشمس ن بودابست وفينا وقد مضى عليه أكثر من شهرين . وأحسبنى ما رأيت مثله مغيب شمس لا مشرقها ، ولا مطلع قمر ولا مغيبه .

* * *

ووقف القطار وشغلنا بالنزول منه وبتعهد متاعنا حين حمله إلى أوتمو بيل يقلنا إلى فندق اختاره رجال فندق بودابست . وكان جو فينا فى هذه الساعة معطراً بما خلف المطر فى السماء من صفو وفى الجو من رقة وفى الطرق من نظافة . وجعلت العربة تدور بنا فى شوارع خالية إلا من قليل من المارة وقليل من العربات ، حتى وصلنا إلى « الرنج » أكبر شوارع العاصمة وأجملها . وهناك استدارت العربة حتى وقفت عند فندق أستوريا ، فأوينا إلى الغرفة التى اخترناها فيه ، وظللنا هنيهة ننتظر أن يصعد عماله لنا بالمتاع .

أتدرى فيم كان حديثنا حين نزلنا إلى المدينة من جديد ؟ كان هذا المغرب البديع الذى انشحت به السماء فأحيت صورتها فى النفس أساطير النيران المقدسة وآلهتها والقرابين التى تقدم إليها عن عقيدة وإيمان : وما نزال حتى اليوم كلما ذكرنا هذا المغرب نعود بنفوسنا إلى الساعة التى شهدناه فيها فنحياها من جديد ، وننسى حين نحياها حياة الحاضر ومشاهده ومحسوساته .

وكم يحيا الإنسان فى حاضره من ساعات ماضية تجدد فى نفسه ذكريات مقدسة كلها حتى ما يبعث منها للنفس أعمق الألم . وهذه الساعات هى حياة الإنسان ؛ لأنها كل ما كسبه الإنسان من الحياة . هى وحدها التى عشناها عيشاً إنسانيًّا صحيحاً . لم نكن أثناءها صورة متجددة من كل الخلائق ينسخ الحاضر منها الذاهب ، بل كنا إيانا . فيها بلغت نفسنا أسمى ما تستطيع النفس بلوغه فى هذا العالم ، فاحتوت العالم وسمت بمعناه إلى أسمى ما تستطيع إدراكه من المعانى . هذا هو العيش . وهذه الساعات دون غيرها هى الحياة .

فى فينا

قاتل الله الحرب ! لقد جنت على كل شيء فى أوربا ، بل فى العالم ، كما جنت على أرواح الذين استشهدوا فيها وعلى قلوب الذين اكتووا بنارها . كانت « فينا » تعد قبل الحرب عروس مدائن أوربا ، وكانت تنافس باريس وتجد كثيرين يحكمون لها بالتفوق عليها . وها هى ذى اليوم أشبه ما تكون بعزيز قوم ذل . ما تزال آثار الماضى بادية فى قصورها الفخمة ، وفى دار الأوبرا البديعة التى كانت أبهى معاهد الموسيقى فى أوربا ، وفى طرقها الفسيحة الجميلة ، وفى ضواحيها النضرة . وهياكل هذه الآثار تشهد اليوم فى خضوع وانكسار مصير عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر الحسيرة . تشهد عاصمة لم يبق لها من ملكها عشر معشار ما كان لها ، فقد علتها غبرة ترهقها قترة ، وأصبحت تعمل بيديها لكسب العيش . وكانت أسباب العيش والنعمة تأتيها طائعة من كل مكان . ويزيد عدد سكانها على مليونين ، وكان قبيل الحرب يقارب ثلاثة الملايين ، وكانت تعتمد فى عيشتها يومئذ على إمبراطورية تعدادها ستون مليوناً أو يزيدون ، وهى اليوم تعتمد على جمهورية لا تكاد تبلغ ستة ملايين . لذلك تكثر فيها الفورات والاضطرابات ؛ لأن أهلها فى حيرة كيف ينظمون حياتهم ، وكيف يصلون من العيش إلى ما يتفق ومكانتهم من الحضارة وإن بعد كل البعد عن أن يشابه فى شيء ما عرفوا قبل نكبة الحرب وسان جرمان . ذهبنا إلى دار الأوبرا لنشهد فيها تمثيل رواية « مدام بترفلاى » ، فأخذتنا روعة عمارتها ، لكنا أخذنا أكثر من ذلك بحال أثاثها الذى أصبح لا يتفق وروعة هذه العمارة . ومن عادة دور الأوبرا فى عواصم أوربا جميعاً أن يلبس الناس فيها ملابس السهرة ، وكانت دار فينا فى مقدمة الكل فى هذا الشأن . وكانت نساء فينا فى شعورهن يتفوقهن فى الجمال على سائر نساء أهل أوربا يتغالين فى التزين ، يكاثرن به أوفر النازلات فى عاصمة النمسا غنى وجاهاً . لكن نساء النمسا ، وإن بقى لهن جمالهن الممشوق فى اعتدال القامة وصفاء اللون ووسامة القسمات ، اعتدالا وصفاء ووسامة لا ينافسهن فيها أحد ، فقد أزالت الحرب عنهن أسباب البهرج والزينة ، وانتزعت منهن الحلى وثمين الجواهر ، فلم يبق لدار الأوبرا أن تقتضى أحداً لباس السهرة . لذلك ذهبنا كما يذهب الناس جميعاً إليها فى ثياب النهار . على أن ما جنت الحرب على ثروة فينا لم ينل منها ؛ فقد غنى

الممثلون رواية « بترفلاى » بالألمانية ، وكنا لا نفهم منها حرفاً . وصدحت موسيقى هذه الرواية الساحرة ، فتتبعنا كثيراً منها ، وتذوقنا الغناء والموسيقى والتمثيل مما بعث أمامنا برهة من حياة « فينا » الجميلة عاصمة الإمبراطورية التى لم تعرف الشظف ولم تعرف الذلة ؛ فازددنا بذلك أسفاً على ما أصارتها الحرب اليوم إليه .

أدت هذه الحال الاقتصادية السيئة إلى أن المتاجر الكبرى صار أكثرها يأخذ بنظام الممارسة فى البيع والشراء ، حتى لم يكد يكون لشىء ثمن محدود ! وإذا كان هذا النكوص فى الخلق التجارى مما يلاحظ فى بلاد كثيرة غير فينا ، بل مما يلاحظ فى باريس ، فإنه لم يصل إلى ما وصل إليه فى فينا مما يشعرك بسوء الحال رغم وجود كفايات علمية وصناعية وتجارية عظيمة فى المملكة . وصل هذا الخلق فى فينا إلى أن البلدية تحدد الأجور لكل غرفة من غرف الفنادق تحديداً يعلن على جدار الغرفة ، مما يبعث على الظن بأن لا سبيل لرجال الفندق إلى التلاعب بهذه الأجور . ومع ذلك فإنك تصل من غير كبير عناء إلى خفض هذا الأجر لسبب أو لآخر يتقدم به أصحاب الفندق على أنه أدى بهم إلى إكرامك . ودخلنا غداة وصولنا فينا متجراً من متاجر أزياء السيدات ، وأعجبت زوجى قبعة فيه ، لكنها استكثرت الثمن . وما أشد عجبنا ساعة خروجنا إذ نادتنا البائعة تسألنا كم نريد أن ندفع ، وتناقشنا فى شىء من الضراعة . ودخلنا يوماً آخر متجراً من تلك المتاجر أيضاً فى ميدان الأوبرا ، أكبر الميادين شأناً وأكثرها فى اتصاله « بالرنج » تجارة ، فاشترينا تطريحة بما يقرب من نصف الثمن الذى عرض علينا أول الأمر . ومن ذلك كثير يسوءنى ذكره وما تزال فينا فى نكبتها . وقد يسائل إنسان : ولم نلوم إذن تجارنا فى خان الخليلى وتراجمتنا الذين يبيعون السائحين ما يسمونه الأشياء الخاصة بمصر وهو أتفه ما بها ، ويمارسونهم فى ذلك على الصورة التى يصفها السائحون الأوربيون بأتعس الألوان ، ويرتبون بعد ذلك عليها ما شاءت لهم أهواؤهم فى تصوير مصر والشرق ومقدرة أهلهما على الاضطلاع بعبء الحضارة ؟ وليس جوابنا على هذا أن تجار « فينا » هم كتجار خان الخليلى ، ولا أن كتّاب أوربا على حق يصورون به مصر والشرق صورة منتزعة من القروش أو الجنيهات التى يدفعونها للتراجمة ولتجار السجاجيد والنحاس وغيرهم ويلذعهم إنفاقها . فالسائحون الأوربيون الذين ينزلون مصر وينزلون الشرق يجيئون إلينا أكثر الأحايين وهم لا يعرفون من أمرنا ولا من لغتنا ولا من تاريخنا أكثر مما تهديهم إليه كتب السفر الموجزة التى يقرءونها فى قطار السكة الحديدية ، وهم يزدادون إعجاباً بما تذكر تلك الكتب أنهم سيرونه بمقدار بعد هذا الذى سيرون عن

الحقيقة وعن المعقول . وطائفة من الكتاب الأوربيين هم – مع الشيء الكثير من الأسف – وسائر السائحين فى هذا المعنى سواء . ثم هم يجيئون ممتلئين غروراً بأنفسهم واحتقاراً لهذه البلاد « الشرقية » التى يزورونها على أنها مصح مفيد بصفو هوائه ، ومتحف جميل بقديم آثاره . فأما أن فى هذا المتحف المصح شعباً له حياة وله مميزات وله نشاط وله أثر فى حياة العالم ، فذلك ما قد تعلموا منذ صغرهم أن يضعوا من أمره على عيونهم غشاوة . فإذا ذهبوا إلى متجر ذهبوا مع مترجم ، ثم طلبوا أنفس الأشياء ، فبالغ لهم التاجر بعض الشيء فى ثمنها ؛ لأنه يتحدث إلى قوم لا يفهمهم ولا يفهمونه ؛ فحسبوا هم أنه يغلو أضعافاً مضاعفة ، لأنهم رأوا مثل هذا الذى يعرض عليهم بربع الثمن الذى يذكر لهم ، لكنه من صناعة أخرى ومن خامات أخرى ، كذلك يقول لهم التاجر . وما شأنهم بالصناعات والخامات ما دام المنظر هو هو ، والمظهر هو هو . ثم إن عالم التفاوت فى إدراك مختلف معانى الحياة ، وفى تقدير آثار الفن بنوع خاص ، قد باعد ما بين الشرق والغرب فى تقدير هذه الآثار التى يوجد فى بلادنا منها كثير . تاجر يعرض على سائح قطعة من خشب المشربيات (الأرابسك) فيطلب التاجر فيها عشرة قروش فيدفع السائح دهشاً لتفاهة الثمن . ويطلز التاجر فى مثلها خمسين قرشاً فيدفع السائح دهشاً لقلة الثمن . ويطلب جنيهاً فتدهش السائح قلة الثمن . المسألة إذن ليس فيها شيء من الاشتراك فى التقدير . كل هذا ولا دخل مطلقاً لحال مصر الاقتصادية فى الموضوع . أما تاجر فينا فيمارسك ؛ لأن سوء حال النمسا الاقتصادية تدفعه إلى ذلك ، أو إلى أكثره بالرغم منه . تدفعه إلى ذلك وهو يعلم أنك تفهمه وتقدر بلاده كشعب قبل أن تقدرها كمصح ، وكحياة نشيطة عاملة قبل أن تكون متحفاً لروائع الفن ولعاديات الماضى .

على أن هذه الحالة الاقتصادية السيئة وما نجمت عنه من حال سياسية أبدعتها الحرب والصلح جميعاً ، جعلتك فى حل من أن ترى من « فينا » متحفاً لآثار حياة انقرضت شهدنا نحن جميعاً انقراضها ، ولما تقم بهذه الآثار حياة جديدة تجعلها ، وإن حدّثت عن ماض مجيد ، ليست أقل بلاغة فى حديثها عن حاضر عتيد . تذهب إلى اللوفر وإلى فرساى وإلى فونتنبلو ، فتحدثك فى عظمة عن ملوك فرنسا حتى الثورة حين كان اللوفر مقرهم جميعاً ، وحين كانت التويلرى متاع نزهتهم ونزهة متاعهم ، وحين كان فرساى المحدث الأكبر عن لويس الرابع عشر ، وفونتنبلو عن نابليون . لكنها إلى جانب حديثها هذا عن الماضى القريب أو البعيد تحدثنا عن حاضر مجيد ليس أقل من ذلك الماضى عظمة وجلالا . لقد انتقل

تراث أولئك الملوك فسار ملكاً مطمئنا للشعب ، فنظمه فى تلك القصور التى آلت إليه هى أيضاً كما شاء له ذوقه الجمال ، ووضع الفكرة الملوكية التى بادت ، فى المكان الذى يريد خياله أن يكون لها من بين المعروضات الحية فى نظام الفن الديمقراطى . أنت تشعر باستقرار هذا الملك للشعب بمقدار ما ترى من عنايته وتنسيقه . أما فى قصر البراطرة بفينا ، وأما مصيفهم بضاحية شنبرون ، فتشعر إذ تدخلها بأنها كانت مأهولة إلى قريب بملاكها ، وأنهم هددوا فيها وأزعجوا عنها فولوا عنها فرارا ، ولم يتركوا لغيرهم من حياتهم فيها أثراً مذكوراً . يصل الإنسان من فندق أستريا الذى نزلنا به إلى قصر البراطرة فى بضع دقائق يقطعها سيراً على الأقدام فى طريق غير فسيح ، فإذا آن له أن يمر بظاهر القصر وأن يقترب من أبوابه ، رأى على يمينه عمارة من نوع عمارة القصر الواقع على يساره مقفلة الأبواب لا يحدث شىء حولها عنها ما هى . . سألنا فإذا هى إسطبلات الإمبراطور . ولكن أين العربات وأين الجياد المطهمة وأين ما نرى من ذلك فى « البتى تريانون » حين نزور فرساى ؟ المالك الجديد ، الشعب ، لما يعرف كيف يكون نظامها ، ولعله لما يتسلمها من الحراس الذين قد يردونها كاملة ، وقد يردون نصفها أو ما دون النصف . وجزنا هذه العمارة المقفلة ، فدعتنا تماثيل فخيمة لنستدير عندها ، فإذا تلك بوابة القصر ، وإذا له بابان عن اليمين وعن الشمال ، عقد فوقهما قبو بمقدار عرض العمارة يمتد النظر بعده فى فضاء ، ثم تقف عمارة ثانية دون امتداده . وآثرنا قبل دخول القصر أن نرى ما وراء القبو مما بين العمارتين ، فدلفنا فإذا بنا فى فناء هائل هائل يحيط بفسحته أجنحة القصر الأربعة ، ويقوم فى وسطه تمثال الإمبراطور فردريك ، ويحدث خلال النظر فى فسحته عما يمكن أن يكون ذلك القصر وما يمكن أن يحتوى وللحظتى أيقنت أن مجرد المرور بغرفه من غير وقوف بأيها يحتاج إلى ساعات عدة ، ما بالك إذا أردت أن تنال من كل غرفة خطفة عين ! وعدنا إلى الأبواب فصعدنا سلماً فيه من سلم قصر الهابسبور ببودابست شبه غير قليل ، نشهد آثار الملكية الساقطة عن عرشها سقطة لا يزال دويها فى الآذان . من تسع سنوات فقط ، فى سنة ١٩١٨ ، كان يقيم فى هذا القصر إمبراطور النمسا والمجر وخليفة الإمبراطور الهرم فرنسوا جوزيف الذى شهد القصر من آثار بذخه وترفه قبل الحرب ما يصبح حديث خرافة إلى جانب ألف ليلة وليلة . فى هذه العشرات بل المئات بل أكثر من ذلك من الأبهاء والصالات والغرف والقاصير والحجرات وملحقاتها من التزينات والحمامات . كان الترف يسيل أنهاراً ، والملك وحاشيته وبلاطه وخدمه وحشمه يجدون فى الجهد جهدا كله [illegible]

القيام على سياسة المملكة والقضاء على دسائس أعداء الملك . وهذا كله كان يستنزف من أموال ودماء وقرابين وأعطيات ورشى كل ما يمكن أن يصل إليه ؛ لأن أضعاف ما يمكن أن يصل إليه هو فى رأى الملك ورجاله بأشد الحاجة إليه لحسن سياسة الدولة ولقيام النمسا مقام العظمة الذى كانت تقفه بين الأمم . وها هم أولاء الذين كانوا يحسنون سياسة النمسا والمجر ويستعينون على حسن سياستها بهذا المتاع كله قد فروا فرار الآبق ، وتركوا النمسا كليمة محطمة تئن أنين الجريح فى حياته ، بل الجريح أكثر من ذلك كرامة وعزة ؛ إذ أصبحت النمسا تدوسها أقدام من كانوا يطأطئون رءوسهم أمام عظمتها ويخشعون ضراعة واسترحاماً .

ومصيف شونبرن أبلغ من قصر « فينا » حديثاً بهذه المعانى عن الملوكية الساقطة . وشونبرن ضاحية جميلة ، تقع على نحو ساعة من فينا ، ويصل إليها المسافر بالقطار وبالأوتوبيس وبالأوتوبيل . والطريق إليها جميل لا يمله النظر فى أى جزء من أجزائه . وبالضاحية إلى جانب القصر مساكن ومقاه لم أسأل : أهى استحدثت بعد الصلح وبعد أن آل القصر إلى الشعب فأصبح من حقه أن تكون ملاهيه إلى جانب مصيف الإمبراطور بعد أن انهار صرح الإمبراطورية ؟ أم كانت هناك من قبل بتسامح القصر ورجاله عنها ؟ على أنه لا يجذب الناس شىء مما بالضاحية إليها لو لم يكن القصر بها . وما تقول فى أبدع عمارة وأروع نقوش للجدران وأبهى صور زيتية وأثمن تصوير فى القماش من طراز الجوبلان ! بل ما تقول فى أكثر من ذلك كله : فى حدائق هى الآية الكبرى فى فن الحدائق ! . نعم ! يتحدث هذا القصر المصيف حديث الترف المستغرق كل ما يتسع خيال أهل الفن جميعاً له من صور الترف ، والمستنزف من أموال الدولة ودماء الأمة ما لا غنى عنه لقيام الإمبراطورية ولطمأنينة الإمبراطور وبلاطه . ولست أريد أن أفجأ خيال القارئ فأذكر له أن إحدى غرف القصر يطلق عليها اسم غرفة الملايين لما أنفق فى تزيين جدرانها بالذهب من ملايين الكورونات الذهب ، بل من ملايين الجنيهات الذهب . ولست أريد أن أذكر أن بالقصر غرفة « لمارى أنتوانت » ، وأخرى لنابليون أيام حكم النمسا ، وأخرى « لمارى لويز » التى صارت من بعد زوجاً لنابليون ، وأن هذا القصر يحتوى على كل ذكر من ابنهما ملك روما الطفل الذى أصبح من بعد دوق ريخشتدات والذى مات بشونبرن من مائة سنة مضت . كلا ! فليس من قصدى أن أقص حديث التاريخ . وإنما أذكر أن هذه الغرف والأبهاء والحجرات حوت فى شونبرن من النفائس والطنافس ومن بديع المناضد ، والموائد ،

وقد كسيت جدرانها بالذهب تارة وبالجوبلان أخرى ، ما لو أراد مؤرخ أو رجل فن أن يقف عنده لاستنفد منه كتاباً ذا أجزاء عدة . هذه كلها والحدائق البديعة من ورائها وبركة المياه الجارية يصعد الإنسان درجات إليها فى طريق الأقواس العالية أقواس الجلوريت (Gloriette) المطلة على فينا ، والتى كان يستريح نابليون لتناول طعام الإفطار عندها — ذلك كله أكبر شهيد بما كان للإمبراطورية من الفضل على فن يجتمع فى قصر بعد أن تذاب فى سبيله أفئدة وتستنزف دماء ، وتراق فى سبيل الكد والكدح له مهج وأرواح ، وهو اليوم باق يشهد بانهيار هذا النظام الذى أقامه . والذى لما يجدّ فى النفسا ما يقوم مقامه

على أنك ترى فى قصر شونبرن ما لا تراه فى قصر البراطرة بفينا . فناحية من قصر شونبرن تكاد تكون كقصور فرساى واللوفر ، أو بالأحرى كقصر وندسور ، احتفاظاً بروعته الإمبراطورية وتنسيق أثاثه ومعرفة الناس مواقعه . أما قصر « فينا » فهو على ما حدثتك كأنما فر منه بالأمس أهله ، فما يدرى نظامه بعدُ من وضعوا أيديهم عليه . ذلك بأن الإمبراطور كان يسمح للشعب ، أو — بكلمة أدق — للرعية ، بأن تزور شونبرن فى أيام معينة ، وكان يعد ذلك تفضلا منه عليهم . وكان رجال القصر فى تلك الأيام يجمعون أثاث القصر فى ناحية ويحمونه بالحواجز من حبال وغيرها يقيمونها بين الشعب الذاهل إجلالاً لعظمة إمبراطوره وبين هذه الطنافس والنفائس المقدسة مما لا يجوز أن تقع عليه عين من غير أن تختلط فى آى الإعجاب والإكبار بآى التقديس والإجلال . فلما ذهبت الإمبراطورية وآل القصر للشعب ، لم يكن الشعب فى حاجة إلى أكثر من الاحتفاظ بالقصر كما كان أيام الإمبراطور يتفضل عليه بزيارته . ومن أن ينزع من نفسه ومن خياله المضطرب بالتقديس والعبادة هذا الاضطراب المذل المخجل .

أما قصر « فينا » فلم يكن الشعب يعرفه ، ولم يكن يتاح له أكثر من أن يمر بفنائه الفسيح الهائل . لذلك ظل كل ما فيه سراً من الأسرار إلا على رجال البلاط الذين فروا مع الإمبراطورية حين فرت . أما من بقى منهم فلم تبق لأحد به ثقة ، مما جعل الشعب نفسه يفكر فى أن يعيد النظام إلى قصر الإمبراطور . وما أوسع الهوة بين الرعية وقصر الراعى ! لذلك ظل نظام القصر غير مكتمل ؛ لأن المالك الجديد بحاجة إلى زمن وإلى مجهود لإكماله ، ولأن لديه من سائر نواحى حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما خلفت الحرب ما يشغله عن هذا اللون من ألوان الكمال الذى لا حاجة تمس إليه ، ولا ضرورة تلجئ إلى الإسراع فيه .

* * *

وهذا الشعب النمسوى فى فينا والذى يعدل ثلث سكان النمسا كلها ، ماذا تراه يفعل لحياته ؟ إن بين ماضيه القريب وبين حاضره لهوة سحيقة أكبر من كل ما يتصور الخيال . هوة ليس سببها سقوط الإمبراطورية كما سقطت الملكية فى فرنسا أيام الثورة الكبرى . ولو أن الأمر كان كذلك لهان الخطب ، ولتمخض النظام القديم عن النظام الجديد فى ظاهر من الثورة ، ولكن فى تطور يستبقى من القديم صالحه ويقضى فيه على ما دعا إلى الثورة عليه ، ويشيد فى أناة ورفق تلك المدينة الفاضلة الجديدة التى سعت الثورة إليها ، والتى لا تزيد فى أكثر الأحايين ، فضلا على ما ثار الناس عليه وإن كانت دونه سوءاً وشراً ، لكن ما أصاب النمسا بفعل الحرب قد حطم النمسا نفسها ولم يكتف بتحطيم نظامها . لم تبق إمبراطورية النمسا والمجر ، ولم تبق مملكة النمسا وحدها ، بل فُصلت المجر وقُلِّمت كما قدمنا ، ثم قلمت النمسا بشر مما أصاب المجر ، فهبط تعدادها من أكثر من خمسة وثلاثين مليوناً إلى ستة ملايين ، وانتزعت منها أكثر أجزائها قدرة وأعظمها خصباً وأوفرها إنتاجاً ، وألقيت تلك العاصمة المجيدة القديمة (فينا) وما حولها من ملايين أربعة على خريطة أوربا ، كما تمسك الرجل فتجز ساقيه وذراعيه وتحطم رأسه وتدق صدره ولا تبقى فيه إلا جذعا يحيا ولا يعرف من الحياة غير الألم . فماذا يصنع هذا الشعب وهذا ما أصابه ، وهو شعب مجيد ذو تاريخ يحدث عن أنه كان إلى يوم أعلنت الحرب صاحب كلمة مسموعة فى سياسة أوربا كلها ؟ بل لعل النمسا لو وقفت من مقتل ولى عهدها فى « سيراجيفو » غير ما وقفت ، ولم تندفع فى السياسة التى دفعتها إليها ألمانيا وجنحت إلى السلم ، لما نشبت الحرب كما نشبت ، ولما ألقى على النمسا ما ألقى عليها من تبعات يعلم الله والتاريخ أن تلك الأمم الاستعمارية جميعاً متساوية فيها إزاء الحرب ، وأن ما يتحمله بعضها من أعذار لإلقاء التبعة على البعض لا يدفع إليه إلا فزعه المرعب من أشباح ملايين الموتى والمدن المخربة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة بالأيم واليتم وبكل أسباب الرزيئة والفجيعة .

نعم ! ماذا يصنع هذا الشعب الذى رزأه الصلح أكثر مما رزأته الحرب ؟ هو يجاهد ليعيش كما يجاهد المريض ليبرأ ، وهو يأمل فى العيش أمل المريض فى البرء ، لكنه يحس بفداحة عبء العيش ، ويضعف فى كثير من الأحيان أمله فيه ، حتى ليتنفس فى تلك الأحيان عن الاستغاثة مصوغة فى طلب الانضمام إلى ألمانيا ، وما هذا الطلب إلا استغاثة مؤلمة قاسية ! أليس معناه ألا تبقى النمسا دولة ، وألا تبقى فيها عاصمة دولة ، وألا يبقى الشعب النمسوى شعباً له كلمة مسموعة فى الحياة الدولية ، وان يفنى هذا كله فى جمهورية

الولايات الألمانية المتحدة ليكون ولاية منها ! وقد يصعب أن يكون له مالها وعليه ما عليها ! ولعل الشعب النمسوى إذ يرسل صيحة الاستغاثة هذه يريد أن يقول إنه لم يندفع إلى الحرب إلا بتحريض ألمانيا ، فيجب أن تحمل ألمانيا وزر ما أصابه فتعينه عليه ، وألا تذر ما مزقه الحلفاء به يحنى عليه حتى يكاد يأتى على حياته . فإن يكن للصيحة هذا المعنى ، أفحق أن الحلفاء مزقوا النمسا جزاء لها عن إعلانها الحرب على صربيا وروسيا ؟ لكن ألمانيا لم تمزق ما مزقت النمسا وقد تضامنت معها وكانت المحرك الأول لها فى كل تصرفاتها إزاء حادث « سيراجيفو » ! وإنما وقف الحلفاء إزاء ألمانيا موقف المتهيب إلى حد غير قليل ؛ لأنهم رأوا فيها قوة شباب ليس من اليسير أن تذعن ، وللقوة أيًّا كانت احترام وتقدير . والقوىُّ يهاب القوىَّ وإن انتصر عليه . لكنه لا يرأف بالهزيم إذا كان ضعيفاً إلا أن يكون رجل شرف وعاطفة . والأمم لا تعرف العواطف . وأمم أوربا بنوع خاص قد أثبتت أن الشرف الدولى مرن يمكن أن يتشكل مع الحوادث على ما تريده الحوادث أن يكون .

هذه الصيحة بطلب الانضمام إلى ألمانيا غير مرجوة الثمرة القريبة ؛ لأن النمسا تعلم كما تعلم ألمانيا أن الحلفاء يقفون فى وجهها ويعترضونها بكل ما أوتوه من قوة . وهم إذا كانوا قد أقاموا التحالف الصغير من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ولتوانيا ويوجوسلافيا سدًّا بينهم وبين البلشفية ! فهم لا يريدون أن تزداد ألمانيا قوة على قوتها بانضمام النمسا إليها ، ليتجدد أمامها شبح الحرب ، ولتكون ألمانيا والنمسا منضمتين قديرتين وهما دولة واحدة أن تسحقا هذا الحلف الصغير بمعاونة روسيا فى أيام ، لتدور رحى حرب كبرى من جديد . لذلك يقاوم النمسويون ما هم فيه من ضيق بكل ما أوتوا من وسائل ، ويجدون من حكمة الحلفاء ما يكفل الوقت المناسب الوقت إمدادهم بما يستبقى أملهم وإن لم يدفع إلى نفوسهم رجاء فى سيادة أو رفعة . والظاهر من هذا ومما تراه فى المجر وفى غيرها من البلاد التى تعانى متاعب الحرب الاقتصادية أن سياسة الحلفاء قد انقلبت بعد الحرب من النقيض إلى النقيض . فهى لم تبق كما كانت سياسة تنافس وتكاثر فى سبيل الاستعلاء والظفر بإغراق الأسواق ، بل أصبحت سياسة تجويع يعقبه تفريج لا يزيد على إزالة أثر الجوع . وقد سلكوا هذه السياسة مع ألمانيا نفسها ، حتى اقتنعوا بفسادها . وبأن رخاء كل أمة من أهم العوامل فى رخاء العالم جميعاً . أما مع غير ألمانيا فلا يزالون يلجئون إلى تجاوز غايتها [illegible] الحرب مع استبقاء سائر الدول فى مكان الانحناء أمام إرادتهم .

هذه الحال النفسية ظاهرة الأثر فى كل ما تراه فى [illegible] هذه الصيحة

التى تدل على عز الماضى والمهملة اليوم أو تكاد محدثة بنكبة الحاضر ، وفى هذه القصور التى كانت آهلة فأقفرت ، وفى المتاجر التى صارت إلى حال لا تحسد عليه ، وفى هذا المرح المتكلف الذى يشعر الإنسان بأن النمسويين إنما يلجئون إليه كما يندفع المصاب لنسيان همه فى الشراب أو فى الميسر أو فى واحدة من هذه الشهوات الدنيا التى لا يلجأ إليها الإنسان عادة إلا كارهاً . ولقد التمسنا يوماً مع أصحاب عرفناهم فى « فينا » حانة من حانات اللهو يدعونها « الهاورجة » ، فانطلقت الأوتمونيلات بنا إلى خارج « فينا » أو ما يكاد ، ثم وقفت عند باب تخطينا منه إلى فناء محطم البلاط ، ثم إلى غرفة فسيحة شبه مظلمة مدت فيها الموائد وجلس من حولها الرجال والسيدات ، وكلهم يتناولون نبيذ العام ، نبيذاً طفلاً لم يحبس فى دن ولم يفكر أحد فى تعتيقه ، وهو لذلك لا يصعد إلى موضع الأسرار ولا يزيد على أن يبعث إلى الناس سروراً طفلاً هو الآخر ، ينسيهم همَّ الحياة زمناً . وهذا النبيذ العام رخيص قليل الكلفة تقدَّم معه ألوان من الطعام رخيصة قليلة الكلفة أيضاً ، يتناولها قاصدو « الهاورجة » فى مرح وغبطة ينسون أثناءها ما يثقل كواهلهم من هم : وما أشد إقبال هؤلاء النمسويين على أى سبب من أسباب المسرة أو اللهو يجدونه فى هذا المكان الذى تدعو دكنته إلى الانقباض ، لولا النبيذ ولولا قصد السرور الذى يجىء الناس به يريدون أن يحققوا بالنبيذ أسبابه . فلما انتصف الليل تركنا الحانة وعدنا إلى فندقنا لنهيئ متاعنا كى نغادر « فينا » فى الصباح .

وكأنما طافت بنا من فينا ريح كآبة وهمٍّ ، جعلتنا ونحن بالقطار فى طريقنا إلى براج نفكر فيما عسى أن نفعل ، وإلى أين عسى أن نذهب . ولعل هذا سبب هيام النفس بالإسراع إلى منزل سرور وغبطة ينسيها ما بعثت إليها أوربا الوسطى من كآبة وهم ، تألماً مع أمها لما نكبها به الحلفاء فى معاهدات الصلح بغياً بغير حق .

براج – باريس – مصر

ترددنا آخر أيامنا بفينا بين السفر منها تواً إلى باريس بقطار الشرق ، وبين السفر إلى براج نزور فيها « كارلسباد » ونذهب منها إلى برلين ثم إلى باريس . وكان لنا ببراج صديق لا معدى لنا عن زيارته فيها وبيننا وبينها ساعات . فكتبنا إليه نذكر أنا قادمون عليه ، وأخذنا تذاكر إلى عاصمة المملكة الجديدة – التى خلقها الحلفاء بمعاهدات الصلح لغاياتهم السياسية – تشيكوسلوفاكيا . وهبطناها ، فاستقبلنا بلد جميل ، تطل محطة السكة الحديدية أول مغادرتك إياها على حدائق ذات بهجة ، وتجد بجوارها فندق ولسن ، فيه كل أسباب الطمأنينة والراحة . وما لبثت بعد ما أويت إلى الفندق واستعدت أمام ذاكرتى خريطة أوربا التى كنت أعرف قبل الحرب ، والتى لم يكن فيها شيء اسمه تشيكوسلوفاكيا ، حتى عاد هذا الاسم القديم الكثير الذكريات مرتسماً أمام خيالى (بوهيميا) يمثل هذه القطعة من أوربا وتمثل براج كورته . بوهيميا ، نعم ! بلد غجر أوربا . ولكن غجر بغير هذا المعنى الوضيع الذى أضفاه الناس على هذه الكلمة عندنا فى مصر ، بل بالمعنى الذى يحبه رجال الفن ويعززونه . غجرى ؛ أى رجل لا يحب الاستقرار ولا يطمئن إلى الحياة المطمئنة ولا يرضى عن العيش الساكن المتشابه مما تكره الناس عليه حياة الاستقرار والصناعة . وأحيا ذلك فى ذاكرتى قصة « هنرى ميرجيه » : « مناظر من حياة الغجر » ، أولئك الذين لا يعرفون أين ولا كيف يقضون ليلهم ، فإذا قضوه لم يعرفوا أين ولا كيف يقضون نهارهم . وليس ذلك لعجز منهم عن تدبير ليلهم ونهارهم وإنما هو ازورار عن الحياة المنتظمة ، وعن ذلك العيش الناعم الذى يتوهمه بعض الناس غاية النعمة والسعادة ؛ وحب لمفاجآت الحياة والعبث بها والاستمتاع بما يسميه الناس شرّها كالاستمتاع بما يتوهمونه خيرها . ذلك مذهب فى الأبيقورية يعشقه الفن ويحسبه نوعاً من الترف لا يتذوقه . إلا من أوتوا فى الفن موهبة عظيمة . استعادت ذاكرتى قصة ميرجيه وجعلت أسائل نفسى : ماذا عسى أن تكون عاصمة بلاد الغجر ، وأى ألوان من الفن أبدعت فيها مواهب هؤلاء الذين لا يعترفون لغير رجال مذهبهم بموهبة فى الفن ؟

ونزلنا المدينة القديمة التى أصارتها الحرب عاصمة من بعد الحرب . هى ولا ريب مبنية على تلال لا يمكن أن يعزى إلى غيرها ذهاب بعض شوارعها مرتفعة أكثر من الأخرى ،

وإن لم تك فى شىء من الارتفاعات العنيفة التى تعرفها شوارع البلاد الجبلية . والنهر يجرى خلالها وإن لم يشطرها . وللمدينة على جانبيه بهجة ليست فى شىء من بهجة بودابست ولا من بهجة أكثر البلاد النهرية التى رأينا . على أن بشوارعها وبمتاجرها وفى ظاهر أهلها روحاً من المرح لعله هو هذا الاستخفاف بالحياة مما عرف عن البوهيميين . مرح يبدو أثره فى كثير من فنونهم وألوان العيش عندهم . ففى كثير من المتاجر يرى الإنسان صناعة الزجاج المزخرف بالغة من التأنق والدقة مبلغاً إلا يكن فيه من البهر ما فى زجاج البندقية ، ففيه من معنى الفن ما يسمو فى نظر البعض على زجاج البندقية . وهنا رأيت لأول مرة انتشار المطاعم « الأوتوماتيك » انتشاراً يجعلك تعتقد أنها بعض مكونات الحياة فى براج . ففى شارع واحد من شوارع المدينة الرئيسية أربعة من تلك المطاعم ، يكفيك أن تدخل أحدها لتجد فى زجاجه ألوان الطعام والشراب مما تحب . فإذا أعجبك صنف من هذه الأصناف فما عليك إلا أن تضع مبلغاً مكتوباً على الزجاج فى ثقب بجواره ، فإذا هذا الطعام أو الشراب يتقدم بنفسه من الزجاج إليك دون أن تمد يداً أو تحتاج فى تناوله إلى خدمة أحد . وعلى هذه المطاعم يقبل كثيرون ساعة الظهيرة بنوع خاص حين يخرجون لتناول طعام غدائهم يريدونه قليل الثمن قليل الكلفة ، فيهرعون إلى هناك يتناولون « الساندوتش » أو البيض أو السمك أو أى نوع شاءوا من أنواع الظعام أو الخضار مما تراه وراء الزجاج . وقد لا يطيق أحدهم صبراً على أن يتم تناول هذا الطعام الخفيف فى هذا المكان ، فما يكاد يجىء على الشطر الأكبر منه حتى يأخذ سائره بين يديه ويمم شطر الباب ليتم هناك تناوله وليتم فى الطريق مضغه . وهذا النوع من العيش وتلك الدقة فى الفن مما أشرنا إليه فى الزجاج وفى كثير من صناعة بوهيميا الخاصة ، تبرز لك فكرة خاصة عن هذه المدينة .

إلى جانب هذا الفن وهذا المرح فى عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، ففيها من الآثار ما يشهد بأنه بلد قديم بين بلاد أوربا قلّ من كبرياتها من تعرف ما يعرف من الآثار القديمة . فيها ساعة فى ميدان ضيق يشير إليها أهل المدينة على أنها من أقدم الساعات المعروفة ، وتتصل ببوابة تذكرك إذ تراها « ببوابة المتولى » بالقاهرة . وهى على ضيقها يمر من تحتها الترام ، فيقف ساعة مروره حركة الجهة كلها وقفاً تاماً . وفيها سراى رئيس الجمهورية يقيم فيه مسيو مازاريك مطلاً على النهر ومتصلاً بمتحف جميل يزوره الناس ليروا فيه بعض الآثار البوهيمية فى الفن الجميل وصورة من تاريخ بوهيميا . ولقد كان من شأن هذا كله أن يستبقنا ببراج أسبوعاً على الأقل ، لكنا لم نقم بها غير ايام ؛ إذ كانت حالتنا النفسية قد بدأت تبدو

إلى السآمة والملل . وبدأت نفسنا تشعر بحنين إلى باريس عجيب . . . حنين لذاع فيه معنى تأنيب النفس كيف تمضى كل هذا الوقت بعيدين عنها وهى هى صاحبة الفضل علينا ، وهى هى التى حلت من قلب زوجى وحلت من قبل ذلك بسنين كثيرة من قلبى أنا محل إعزاز وإكرام ، حتى لأعدّها وطنى من ناحية الثقافة والتهذيب . لكن برلين على مقربة منا ، أفلا نذهب إليها ؟ كلا ! كلا ! لم تبق للنفس طاقة بالسفر إلى بلد غير باريس ، ولم تبق لها طاقة بالمقام بعيداً عنها ، لم تبق لها طاقة بأن تشاهد ما حولها فى براج ، وبأن تقف مأخوذة معجبة به كما وقفت فى الآستانة ورومانيا وبودابست . والطريق بين براج وباريس يستغرق ثمانٍ وعشرين ساعة . فليكن ! ولتكن مشقة الطريق بعض ما نكفِّر به عن التباطؤ على باريس ، كما أن شقة الحج إلى بيوت الله المقدسة بعض ما يزيد الحاجّ أجراً . وعبثاً حاول صديقنا أن يستبقينا معه ببراج زمناً أطول لنزور معاً « كارلسباد » ؛ فقد نفد كل ما فى النفس على اللحاق بباريس من صبر ؛ ودلفت أنا وزوجى يوماً مطيراً فى الطريق الموازى لطريق فندقنا ، حتى بلغنا محلات كوك ، فأخذنا منها تذاكرنا وحجزنا للغداة أماكننا ، وأنبأنا بذلك صديقنا ، وكنا فى الساعة العاشرة من صباح الغد نودعه وأهله ويودعوننا .

وانطلق بنا القطار ، وانكشف من حولنا السهل وانفسح الأفق . وليس قطار براج — باريس من نوع السهم الذهبى الذى يصل بين لندن وباريس فلا يقف بينهما إلا ريثما ينتقل المسافرون على الباخرة فوق المانش . كلا ! بل هو يقف فى محطات شتى كانت « بلسن » فى مقدمتها . ولبلسن فى البيرة شهرة عالمية . لذلك ما كاد القطار يقف بها حتى رأينا باعة البيرة يجرون بعرباتها ، ورأينا المسافرين يتسابقون إلى شربها ، كأنما هى جرعة من ماء زمزم يتبركون بها . وهؤلاء الباعة يحمل الواحد منهم فى يده عشرة أكواب ، فإذا وزعها طار إلى عربة يجىء منها بأكواب أخرى . وعاود القطار انطلاقه بعد ما ترك للمسافرين الفترة الكافية للمتاع ببيرة بلسن ، وبقينا تحيط بنا الطبيعة الأوربية السهلة فى هذه الجوانب من بوهيميا وألمانيا ، حتى إذا كان الصباح كنا عند الحدود الفرنسية ، وكنا قد بدأنا نشعر بأن السفر حقاً قطعة من العذاب . لكن وجهتنا باريس ، وقد قطعنا أكثر من عشرين ساعة ، فلم يبق إلا أقل من ثمانى ساعات : فلنصبر ، ولنمد الأعناق تجاه مدينة النور . فإذا بلغناها فى الساعة الأولى من بعد الظهر كان لنا أن نسرع إلى مخادعنا ، وأن ننال فيها قسطاً من الراحة يعوضنا عن هذا الجهد المضنى وهذه المشقة التى هدّت الجسم ورضّته .

لكنا ما كدنا نصل باريس حتى شعرنا بحياة جديدة ونشاط جديد يسريان إلى أعصابنا

وإلى قلوبنا وإلى أرواحنا ، شأنك حين تلقى أعزة لم ترهم من زمان ، فإذا رأيتهم بعثت الغبطة بهم إلى نفسك انتعاشاً يقضى على كل ما قد ينتابها من سآمة أو ملل . وبلغنا من ذلك حتى لم تطرف لنا بغفوة عين ، بل قمنا بعد أن نظمنا متاعنا فى غرفة الفندق ، ونزلنا نطوف أنحاء باريس نتنسم ريحها ونحس رَوْحها ، ونضم إلى صدرنا ما فى كل نسمة من نسماتها من عطف وفن وحياة . ونحن الذين أجهدنا السفر لم نطق صبراً على مسارح باريس ألا نؤمها ؛ فأخذنا تذاكرنا فى ممثل « أنتوان » وقضينا إلى منتصف الليل يغالبنا التعب ونغالبه ويعيننا التمثيل الجميل المملوء بالنكتة الظريفة والحكمة السامية والحياة القوية على التغلب عليه . وانخرطنا فى حياة باريس فرحين بها مستبشرين بكل شىء فيها ، ميممين التويلرى والكونكورد والشانزليزيه تارة ، مستمتعين بغاب بولونيا تارة أخرى ، منتقلين إلى الشاطئ الأيسر حيناً ، مسافرين إلى ضواحى العاصمة الكبيرة حيناً آخر ، مقرين دائماً إقراراً خالصا بالجميل الذى غمرتنا به مدينة النور منذ ردت إلى زوجى طعم الحياة .

على أن ظرفاً خاصاً كشف لنا من باريس عن ناحية ما كنا لولاه لنراها ؛ ذلك ما كان من زيارة جلالة ملك مصر لعاصمة الجمهورية الفرنسية واستقباله بها رسمياً فى اليوم التذكارى لموقعة نافارين التى فيها حطم حلفاء ذلك العهد ، ومن بينهم فرنسا ، أسطول مصر حين صولتها وسطوتها أيام حكم محمد على ، حتى لا تكون دولة قوية على البحر الأبيض تنازع دول أوربا السيادة فيه . وكان ذلك فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧ ، وأكتوبر فى باريس شهر ساحر تعود فيه لباريس كل حياتها ؛ إذ يعود إليها كل أهلها ، فينشط كل شىء فيها ، ويزداد نشاطاً بجو الخريف الساحر تتضوع به كل أرجائها . وقد زاد ذلك فى غبطتنا بالزيارة الملكية لعاصمة الجمهورية ، كما زاد فيها أن وزارة الخارجية الفرنسية والجمعيات والهيئات الفرنسية التى احتفلت لجلالة الملك فؤاد دعت زوار باريس من المصريين جميعاً إلى جميع حفلاتها . بهذا أتيح لنا أن نحضر حفلة المسيو دومرج رئيس الجمهورية فى قصر الأليزيه ، وأن نشهد فى بهوها الفسيح الجميل تمثيل قطع من روايات مختلفة يقوم بها ممثلو الكوميدى فرانسيز والأوبرا كوميك والأوبرا وموسيقاروها ، وأن نشهد كذلك حفلات فى الجمعية الجغرافية وفى متحف اللوفر وفى أماكن شتى ، وأن نستمع إلى أكابر العلماء والوزراء الفرنسيين يرحبون بجلالة الملك ويوضحون بين يدى جلالته ما يعرضونه أمامه مما يقع عليه نظره . وما كان أظرف مظهر بعض البارزين فى الحياة السياسية منهم والمعروفين بالتطرف فى الرأى الجمهورى وهم يقومون بواجب الضيافة والإكرام فى ظرف ورقة . كان مسيو هربو الزعيم

الاشتراكى والجمهورى المتطرف وزيراً للمعارف فللفنون الجميلة بطبيعة الحال . وكان عليه لذلك أن يستقبل الزائر الكريم فى صالة بمتحف اللوفر نظم فيها معرض لصور تتصل بمصر وتاريخها من بينها صورة لمحمد على الكبير . فلما دخل جلالته صالة ذلك المعرض خطب مسيو هريو بين يديه مشيداً بأعماله وأعمال أبيه وجده ، مستريحاً إلى أن الخلاف فى العقيدة السياسية لا يغير شيئاً من واجبات اللياقة ، كما يجب ألا يغير شيئاً من أسباب المودة أو الصداقة .

وآن لنا أن نعود إلى مصر ، فأقلتنا إليها الباخرة « إكسفردشير » وأرتنا أثناء سفرها على البحر منظراً عجباً ؛ فقد كان المسافرون أصيل يوم سادرين فى مرحهم ولهوهم ، وإذا سحب تحجب الشمس ، وإذا موج يهز السفينة ، ثم إذا المطر ينهمر هتونا فيحيل الوجود كله ، سماءه وموجه وبحره وسفينته ، ماء يجعلنا فى آن سابحين غرقى ، ويبعث إلى نفوسنا من أسباب الرهبة ما يزيدها انكماشاً كلما برز الوجود أمامها مما يشعرها بعظمته وصغرها أمامه . وظل تهتان المطر سويعة ، ثم أمسكت السماء وإن بقيت الشمس فى حجاب من السحب . على أن هذه السويعة أدنت ساعة مغيب بديع ردتنا سابحين غرقى فى لجة عسجدية ، مما أفاضت السماء على السحب ، وما سكبت فى الماء من ذوب أشعتها القانية الحمرة ، حتى لكأنها تهمى دماً يصبغ الجو كله مدى ساعة كاملة . تجىء بعدها ظلمة الليل فتبتلع كل أثر للمغيب .

وبلغنا مصر وانخرطنا فى حياة العمل . حتى إذا كنا فى أول يونيو سنة ١٩٢٨ فى عطلة عيد الأضحى باغتنى أوتوبيل ، فاضطررت إلى وضع ساقى فى الجبس ولزوم منزلى ستة أسابيع كاملة خرجت بعدها متعب الأعصاب محتاجا أشد الحاجة إلى الراحة والسكينة ، ففكرت من جديد فى أن أفى بالنذر الذى نذرته لنقضين الصيف فى أوربا ، واخترت جنوا مرفأ البداءة لرحلتى ، وغادرت القاهرة فى ١٧ يوليو لأستقل الباخرة « أوزارامو » من ميناء بورسعيد . غادرتها وجو مصر السياسى مثقل باحتمالات ما كنت لأستطيع — وأنا فيما أنا فيه من جهد — أن أقوم على وجه مرضٍ بواجبى الصحفى . وكأنما أراد القدر أن يجعل نصيبى من الاستشفاء فى هذه الرحلة أوفر من نصيب زوجى . فقد أشار الطبيب علىّ بأن أذهب إلى « بارجستين » أعالج بمياهها ما أصاب كتفى اليمنى أثناء مقامى بالدار سجين ساقى . ولم أكن أدرى أن القدر المحسن قد كتب لنا فى لوحه أن يكون هذا الصيف

آخر صيف لاستشفائنا ، وأن سيعود لنا أكبر الرجاء فى العوض عما أصابنا قبل صيف العام المقبل ؛ فتكون مغادرتنا مصر إلى أوربا فى مهمة سياسية بدل أن تكون مهمة استشفاء وانتظار ورجاء .